
ساحر الكتب
رواية
رفقاء الظلام
محمود الجعيدي
دار الرسم بالكلمات

"لا يوجد مكان لحفظ السر أفضل من رواية غير مكتملة"

الروائي الإيطالي: إيتالو كالفينو

الفصل الأول

العبث

الوقت الحالي..

في قلب الصحراء غير المأهولة، وحين كانت الشمس توشك على المغيب، اندفعت سيارة سوداء حديثة تشق طريقها فوق الرمال وبسرعة غير عادية، كأنها تتنافس في سباق حياة أو موت. داخل السيارة، أشعل (هاشم) سيجارته العشرين لذلك اليوم، وسحب منها نفسًا عميقًا محاولًا السيطرة على مشاعره التي تتأرجح بين الخوف والنشوة. في لحظة يرتجف جسده بأكمله من الرهبة، وفي اللحظة التالية تجتاحه موجة هائلة من الفرح.

بعد عشرين دقيقة من القيادة المتواصلة، توقف بالسيارة أسفل قمة جبل شاهق الارتفاع، ثم أطفأ محرك السيارة وهبط منها وسار في ممر ضيق وهناك شاهد رجلًا عجوزًا، ملامحه ضامرة، يرتدي عباءة بيضاء متواضعة، يبدو أنه كان في انتظاره.. بادره العجوز قائلًا بطيبة:

- دكتور هاشم على ما ظن! أنا الشيخ (الراوي).

ابتسم هاشم ومدَّ يده يصافح يد الشيخ الهزيلة:

- أود أن أشكرك على قبول هذا اللقاء.

قال الشيخ الراوي:

- ليس من المعتاد أن يطلب رجل ذو شأن مثلك مقابلتي! تفضَّل من هنا..

وأشار له أن يتبعه واتجه نحو منزل حجري مبني أسفل الجبل مضيفًا:

- أعتذر لأن هذا الجزء من الطريق لا يناسب سيارتك الحديثة.

نظر هاشم إلى المنزل الذي كان مجرد وجوده في هذا المكان المنعزل أشبه بشيء هبط من السماء بطريقة سحرية، وقال وهو يعبر مسافة مليئة بالصخور الضخمة والأحجار الكبيرة:

- صدقني لقد تجاوزت أماكن أقسى من هذه.

- بالتأكيد.

قالها الشيخ الراوي والرياح الباردة تعبث في أطراف ردائه الواسع، فتصنع حوله ما يشبه أجنحة عريضة، قبل أن يضيف بلهجة ذات مغزى وهو ينظر بطرف عينه إلى هاشم ذي البشرة السمراء والجسد الممتلئ:

- أعترف أنك مختلف كثيرًا عما تخيلت.. كنت أتوقع رؤية رجلٍ نحيل كالقلم الرصاص ويدخن كـ (برلين) حين دخلها الحلفاء!

ابتسم هاشم بتهذيب والتقت عيناه بعين الشيخ الراوي للحظة وجيزة وهتف:

- تغير العالم كثيرًا في المائة عام المنصرمة.

ضحك الشيخ الراوي، في حين واصل الهواء نفخ رداءه وقد ازدادت الرياح قوة وغمغم:

- أنا لست قديم الطراز إلى هذا الحد.

دفع الشيخ الراوي بوابة المنزل فتردد صوت احتكاكها بالأرض المرصوفة بالحجارة قائلًا في هدوء:

- تفضل..

عبر هاشم عتبة الباب وهو يحرك بصره يمينًا ويسارًا، وجد نفسه داخل غرفة مربعة الشكل اكتست جدرانها باللون الأبيض، شعر أنه يدخل منزلًا من منازل الماضي. جلس الاثنان حول مائدة خشبية وبدأ هاشم كلامه قائلًا بلا تمهيد:

- أين هو..؟

ساد الصمت للحظة ثم تنهد الشيخ الراوي قائلًا:

- اسمعني جيدًا دكتور..

- كلي آذان صاغية.

لانت لهجة الشيخ الراوي قليلًا وهو يقول:

- أعتقد أن ما تبحث عنه قد يترك أثرًا عميقًا في العالم، ومن المحتمل أن يحدث تحولًا مدمرًا.

أخرج هاشم دفتر شيكات ووضعه أمام الشيخ الراوي وقال:

- شيخ راوي.. لا أريد إهدار الوقت.. فقط ضع الرقم الذي تريده.

- صدقني، أنا لا أقول لك ذلك من أجل الحصول على صفقة أفضل.. المسألة ليست مسألة مال.

- مسألة ماذا إذن؟!

- شيء آخر كبير لا مجال فيه للمساومة.

تطلع إليه هاشم قليلًا قبل أن يقول:

- لا يوجد شيء غير قابل للمساومة!

ثم تنهد بصوت عالٍ ومدّ يده إلى جيبه وأخرج هاتفًا ذكيًا أسنده أمام الشيخ الراوي واستطرد قائلًا:

- أعتقد أنه من المؤسف أن يقوم الآباء بدفن الأبناء.. ما تراه الآن هو بث مباشر لابنك الوحيد داخل المستشفى.. حالة شبه ميؤوس من شفائها، والأمل الوحيد عملية زراعة قلب تتكلف مبلغًا طائلًا.

أطرق الشيخ الراوي برأسه أرضًا وهو يغمغم:

- أخبرتك أنها ليست مسألة أموال.

- أفهم ذلك.. مشكلة ابنك الحقيقية هي في فصيلة دمه النادرة.. ومن حسن حظك أن لدينا ما يحتاجه بالضبط.

رفع الشيخ الراوي نظره بينما ابتسم هاشم مضيفًا:

- بضغطة زر واحدة سوف يتم إجراء الجراحة له على يد فريق من أفضل أطباء العالم، وأنا أتعهد لك بذلك.. لكن قبل أن أفعل سوف تعطيني ما أريد شيخ راوي!

- هل يمكن أن أسأل لصالح مَن تعمل؟!

صمت هاشم قليلًا قبل أن يجيب:

- مؤسسة (S.C.P) .. نحن مؤسسة عالمية تهدف إلى تأمين أشكال الحياة والحفاظ على أمن البشرية والإدراك السوي للإنسان.

أجفل الشيخ الراوي لدى سماعه ذلك، لم يتحدث وأشار إلى النافذة الخلفية التي تطل على الجزء المخفي من سفح الجبل. ذهب هاشم إلى النافذة وحدق إلى الخارج، شاهد مقبرة من الجرانيت مغطاة بالرمال، يبدو أن الرياح الشديدة التي حدثت بالأمس قد كشفتها، من المستحيل اكتشاف هذا المكان دون الدخول للمنزل والنظر من هنا. التفت إلى الشيخ الراوي وقال مندهشًا:

- أنت تخفي مدخل المقبرة عن طريق المنزل!

هز الشيخ الراوي رأسه قائلًا:

- سر توارثناه أنا وعائلتي منذ مئات السنين.

ثم تنهد وهو يستطرد:

- أنا على يقين أنك قمت بأبحاث كثيرة عني.

عقد هاشم حاجبيه قائلًا:

- طبيعة عملي تدفعني إلى ذلك.. الموضوع ليس شخصيًا إطلاقًا.

مدَّ الشيخ الراوي يده إلى جيبه وأخرج مسبحة من الأحجار الكريمة وقال:

- أتفهم ذلك، لكن لديَّ سر آخر لا أعتقد أنك تعرف بشأنه.

- أي سر؟!

وضع الشيخ الراوي يده على كتف هاشم وابتسم قائلًا:

- دعني أخبرك..

أظلمت الدنيا للحظة أمام عين هاشم لكنه هز رأسه وقال في حدة وهو يبتعد عن يد الشيخ الراوي:

- لا أهتم.

وعاد ينظر إلى الكتلة الجرانيتية، وعلى بعد بضعة أمتار منها شاهد سردابًا طويلًا ينتهي بباب حجري ضخم مكتوب عليه باللغة القديمة:

"على الذين تطلع عليهم الشمس وتغيب،

والذين يعيشون على ماء المطر ودفء السماء،

أن يتجهوا إلى مصدر النور..

هناك الصلوات والحياة والموت".

قال هاشم:

- ما أريده حصلت عليه.

ثم أضاف في حماس:

- قبر (آدم)، كاهن الرب الأخير.

اقترب منه الشيخ الراوي وسأله في فضول وحذر:

- ماذا تنوي أن تفعل بجسده؟!

صمت هاشم قليلًا قبل أن يقول بكل بساطة:

- سوف نقوم باستنساخه.

***

قبل الميلاد..

صبيحة يوم بارد.. الشمس لم تظهر بعد لكن الضوء يغمر الفضاء.. معركة حامية الوطيس تدور رحاها على أطراف مدينة عظيمة يحيطها سور حجري ضخم به بعض الأجزاء المحطمة، ومن خلفه تبدو أطلال قصور ومنازل كبيرة.. أكثر من مائة ألف يتقاتلون في تلك اللحظة. غبار الحرب يصنع بقعة ضبابية تكبر أحيانًا وتختفي أحيانًا أخرى. رياح فحيح الموت تلفح الوجوه بلا رحمة، يتقاتل الرجال وتتصادم الخيول وتلتقي أسنة الرماح. يرتج الهواء بقارعات السيوف، وتنفجر صرخات المصابين والمجروحين وتتساقط الجثث تحت الأقدام.

من فوق قمة جبل غير بعيد، وقف (آدم)، أو كما يطلق عليه بين أصحابه (كاهن الرب)، يحيط به سياطٌ من الرهبة والعظمة، عمامته الضخمة يبرز من تحتها خصلات شعره الأصفر. يدور بعينيه الزرقاء على القتال الدائر بين الجيشين.

بعد سويعات، بدت الحيرة على وجهه والمعركة تذهب في اتجاه

النصر لجيش الأعداء، رجاله مشتتون ومبعثرون، وصهيل الخيول قد تحول إلى عواء مختلط بقارعات السيوف، وفي الأعلى كانت السماء ملتهبة بالطيور الجارحة تحلق وتدور في دوائر في انتظار الغنيمة الشهية.

جلس آدم القرفصاء على حصى الأرض وأغمض عينيه في حالة تركيز شديدة، بضع دقائق كأنه يستجمع نفسه، ثم فتح عينيه بغتة. رفع يده يحركها في الهواء حركة راقصة يشير بها يمينًا ويسارًا، وهو يتمتم ببعض الكلمات المبهمة، فيتساقط على إثرها الأعداء ممزقين، الأجساد تتهاوى تباعًا، تتطاير الرؤوس في الهواء منفصلة عن الأكتاف كأن قوة خفية تقاتل شر قتال!

وعند انقضاء النهار وبدء دخول الليل، تناثرت الأبدان والجثث الممزقة والدماء المنثورة على مساحة الأرض الممتدة. انكشف جيش الأعداء بعد أن ضربتهم سهام الخوف والرعب وسقطت رايتهم ولاح النصر أخيرًا لجيش آدم. ارتفعت صيحات الفرح والتهليل وهتاف الرجال:

- آدم.. آدم.

***

الوقت الحالي..

عقد هاشم حاجبيه بشدة حتى كادا يختلطان وهو يقف أمام مقبرة (آدم) يراقب العمل الذي لا يتوقف، تم إزالة منزل الشيخ الراوي وشرع العمال في رفع الرمال من الجزء السفلي من السرداب

إلى أن ظهر باب المقبرة كاملًا وسط نظرات الترقب والقلق من الجميع. كان يوجد عشرات من رجال الأمن والحراسة الخاصة يحيطون بالمكان في تحفز تحسبًا لأي مفاجآت قد تحدث.

بعد مدة، فرغ فريق التصوير من التقاط الصور لجدران المقبرة وما تحتويه من نقوش، ثم جاء هاشم وأزاح بعض الرمال من فوق حافة الباب العلوية، فظهرت ثغرة في الركن الأيسر وخلفها ظلام معتم.

تناول هاشم سيخ حديد رفيع وأدخله في تلك الثغرة حتى تأكد أن وراء الباب فضاء وليس ردم أو صخور أخرى، وبعدها أجرى اختبارًا سريعًا لطبيعة الهواء خلف الباب عن طريق إدخال مشعل لمعرفة إذا ما كان الهواء الموجود يحمل غازًا متعفنًا فاسدًا أم لا، فجاءت النتيجة سلبية.

بسرعة قام العمال بإزاحة الباب ومن خلفهم وقف هاشم يتابع وقد غلبه الفضول والانفعال الشديد، وبمجرد إزاحة الباب اندفعت نحوهم موجة هواء حارة أطفأت المشعل الوحيد الموجود.

في البداية، لم يستطع هاشم رؤية شيء، لكن مع الكشافات الحديثة التي صوبها بعض العاملين بدا كل شيء يظهر ويتضح. تطلع هاشم إلى داخل المكان وعبر بتردد، شاهد حيوانات غريبة محنطة، ذهبًا يلمع في كل مكان، كومة غير منتظمة من العربات المقلوبة. بدأوا في البحث عن جثمان الكاهن لكن بدون فائدة، لا يوجد أي أثر لمومياء أو كفن. لكن في المنتصف كان يوجد تمثال

لرجل يجلس القرفصاء ويمسك صولجانًا في يدٍ وفي اليد الأخرى عصا..

رغمًا عنه، لم يستطع هاشم أن يرفع بصره عن هذا التمثال وكأنما هناك قوة خفية تدفعه للسكون أمامه والتبجيل والتعظيم له. نادى على مساعده:

- نجيب!

اتجه نحوه شاب طويل القامة نحيل البنيان، يرتدي معطفًا أسود، شعره طويل لكنه متشابك بعض الشيء. نظر نجيب إلى التمثال وقال:

- غريب!

غمغم هاشم بوجهٍ عابس:

- الأهم من ذلك أين اختفى جثمان كاهن الرب؟!

- ربما تعرضت المقبرة للنهب قديمًا!

هز هاشم رأسه نافيًا:

- لا.. كل شيء نظيف وفي مكانه.. المقبرة لم يدخلها أحد.

ثم أشار إلى التمثال وأردف:

- هل رأيت طوال حياتك شيئًا مثل هذا؟!

أمعن نجيب النظر إلى التمثال قبل أن يرد:

- يشبه تمثال بوذا العظيم.

للحظة، شرد هاشم بخياله على نحوٍ عجيب ورأى نفسه بعين الخيال راقد على ظهره عاجز عن الحركة في مكان مظلم من الصحراء، ينظر إلى السماء حيث تتناثر النجوم اللامعة قبل أن يظهر رجلٌ ضخم لا وجه له يرتدي ملابس أشبه برجال الزمن القديم، وضع يده على رأس هاشم وقال له:

- انهض يا بني باسم آدم كاهن الرب..

شعر هاشم ببرودة يد الرجل وقبل أن يرد عليه استيقظ مما كان فيه وانتبه على صوت نجيب وهو يلكزه في كتفه:

- سيد (هاشم)!

شهق هاشم ورد بحدة:

- ماذا؟!

قال نجيب في خفوت:

- لا أقصد أن أُهينك، لكنك تجمدت بلا سابق إنذار وشردت عيناك بعيدًا!

- لا تهتم. أنا فقط كنت أفكر. ذكرني بسرعة ماذا قلت أنت منذ دقائق؟

ارتبك نجيب وقال:

- قلت أن التمثال يشبه تمثال بوذا العظيم.

اقترب هاشم من التمثال وتفرس فيه، ثم دقَّ عليه بطرف إصبعه وأصغى السمع.. غمغم نجيب:

- ماذا تفعل؟

أشار له هاشم أن يصمت، ثم عاد ودق مرة أخرى على جزء آخر من التمثال. صوت الطرق كان مختلفًا، جذب ذلك نجيب لكي يقترب هو أيضًا ويحاول أن يفهم ماذا يفعل هاشم الذي نظر له:

- التمثال مجوف من الداخل وبداخله شيء آخر.

عقد نجيب حاجبيه متسائلًا:

- لماذا؟!

- لا يوجد لديّ تفسير لما أشعر به الآن، لكن أنا على يقين أن هذا التمثال يحوي سرًا ما.

ثم أخرج من حقيبته جهاز أشعة سينية وصوبه على التمثال وسط دهشة نجيب الذي تراجع قليلًا إلى الخلف. شعر هاشم بموجة حارة من الأدرينالين تشعل جسمه، خصوصًا حين أظهرت الأشعة ان التمثال يحتوي على جثة كاملة تتخذ نفس شكل التمثال.. جثة آدم!

***

قبل الميلاد..

انزاح جمع من الجنود وظهر آدم يقف وسط حشود تحتضنه وتحيطه وتنادي باسمه تعظيمًا وتبجيلًا وقد بلل العرق ووجهه، وهو يستند على سيفه كأنه عصاه يتوكأ عليها في وقفته، بينما أسرع أحد

الأتباع نحوه لاهثًا متحمسًا وهو يجرجر قائد الأعداء المثخن في جراحه:

- ماذا نفعل في الأسري، سيدي كاهن الرب؟

رد أحد التابعين بسرعة:

- نقتلهم..

نظر آدم إلى الأسرى متأملًا متمهلًا، كانوا خمسمائة رجل أو أكثر وقفوا ينتظرون الحكم فيهم. التفت إلى التابع وقال في حزم:

- لا.

ثم مد نظره بعيدًا ورفع يده حين لاحظ علو الأصوات المعترضة، فصمت الجميع خاشعين وأكمل قائلًا:

- لن نقتل أحدًا.

لم يطق التابع الرد فقال في دهشة وحيرة:

- كيف نترك هؤلاء البربر يذهبون ولا نطبق عليهم قانون الرب؟!

ابتسم آدم ابتسامة واسعة:

- من قاتلنا قتلناه، الأسرى نعفو عنهم. هذا هو حكم الرب.

كاد التابع يعترض، لكن كلام آدم كان باترًا لدرجة أن التابع تحسس رقبته دون أن يشعر، وكاد يبدي اعتراضًا آخر، لكنه كتمه في جوفه وصاح بصوت مرتفع:

- قد نطقت بالحق.

أخرج آدم من جيب رداءه رقعةً ملفوفة من الجلد وقدمها إلى قائد جيش الأعداء:

- هذه شروطي، اذهب بها إلى سيدك.

ثم ربت على كتف القائد وأضاف بلطف:

- أخبره أن الكاهن آدم يدعوه للخضوع لإرادة الرب.

تأمل القائد اللفافة ثم أحنى رأسه في خضوع وانصرف. اقترب أحد التابعين من آدم وسأله:

- وإن رفض أميرهم الانصياع لنا؟!

جال آدم بنظراته في الخلق وقد تعلقت آذانهم به ثم قال في غموض:

- لن يجرؤ على الرفض.

فجأة، اندفع نحو آدم رجل خائن مسكون بالحقد، انتزع خنجرًا معقوفًا من حزامه، وحاول أن يطعنه وهو يصرخ. تراجع آدم خطوة إلى الخلف وأشار تجاهه بطرف إصبعه، فطارت يد الخائن مقطوعة في الهواء وسقطت بعيدًا. شهق الخائن شهقةً هائلة وحاول أن يهرب، لكن أحد الجنود كان أسرع منه، فطعنه بالسيف في أحشائه، ثم صعد به من خصره إلى أعلى صدره حتى انشق جسد الرجل إلى نصفين وهوى على الأرض. قال آدم:

- بئس الرجل أنت!

ارتفع تهليل وصياح الجيش:

- كاهن الرب.. كاهن الرب..

ثم انفتحت صفوف الرجال وظهر فرس زاهي اللون بهيج الهيئة، اعتلاه آدم ومضى به مبتعدًا يصحبه خمسون مقاتل يفسحون له الطريق رافعين سيوفًا لامعه ورايات عالية تكاد تلامس سحب السماء المنخفضة.

***

الوقت الحالي..

داخل مركز منظمة S.C.P للأبحاث العلمية، وفي منتصف القاعة الرئيسية أحاط المختصون بالتمثال الحجري، يراقبهم هاشم من وراء جدار زجاجي وهو يفكر كيف أن العثور على مقبرة أحد كهنة الرب يعتبر اكتشافًا غير مألوف، خصوصًا أن التاريخ كله لم يذكر سوى ثلاثة رجال فقط حازوا على هذه الصفة الفريدة التي تم نسج حولها الكثير من الأساطير والخرافات.

في البداية، كان لدى هاشم شكٌ كبير أنهم عثروا على المقبرة الصحيحة، لكن بعد فك شفرة كل الكتابات الموجودة في المقبرة تأكد أنها بالفعل مقبرة (آدم)، ثم كانت المفاجأة حين تم فحص التمثال من جديد بالأشعة السينية، وجدوا داخل التمثال جثمان آدم سليمًا، وقد تم تحنيطه بكفاءة وعناية شديدتين. لكن لماذا؟ هل تكون تلك هي رغبته أو هي رغبة أتباعه؟

على مدار سنوات سابقة، حاولت المنظمة العثور على جثامين كهنة الرب الأخرى، واكتشفوا أن الجثامين قد تم تدميرها بفعل فاعل مجهول. الأمل الوحيد والأخير كان هو مشروع استنساخ (آدم) بعد أن تمت الموافقة عليه بدلًا عن مشروع استنساخ الأنبياء الذي رُفض من أعضاء متشددين في مجلس إدارة المنظمة.

تمت معاملة مشروع (آدم) على أنه سرٌ حربي خطير كفيل بأن يقلب الدنيا، ولهذا تم التكتم عليه بشدة وإخفاءه عن كل الجهات، وخصوصًا الجهات الدينية، رغم أن ثمة عدد قليل جدًا من رجال الدين كانوا يعلمون بهذا الشأن ووافقوا عليه. الرمز الكودي للمشروع كان رقم ٤٦.. ٤٦ هو عدد الكروموسومات البشرية وهي أصل تكوين خلية الإنسان، كما أن اسم آدم وفقًا لعلم الأرقام والحروف يرمز له بالرقم ٤٦.

أ	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ي
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
20	30	40	50	60	70	80	90	100	200
ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ		
300	400	500	600	700	800	900	1000		

في وقت سابق من صباح اليوم، تحدث هاشم مع كل العاملين في

المشروع وتكلم بانفعال واضح عن أهمية ما يقومون به من أجل سلام البشرية، وبعد أن انتهى اقترب منه نجيب قائلًا:

- كانت تلك واحدة من أفضل الخطب التحفيزية التي سمعتها في حياتي.

نظر إليه هاشم نظرة خاطفة وقال:

- أنا فقط كنت أعبر عما خطر في بالي.

ثم صمت قليلًا قبل أن يضيف وهو يحدق في التمثال عبر الجدار الزجاجي:

- هناك شيء واحد يصيبني بالحيرة.. لماذا تم وضع الجثمان هكذا؟ إذا كان الهدف هو الحفاظ على الجسد لماذا لم يتم تحنيطه بالطريقة العادية؟!

لم يرد نجيب.. هو أيضًا لا يجد تفسيرًا منطقيًا. ساد الصمت.. تابع هاشم شعاع الليزر وهو يقوم بشق التمثال بمنتهى الدقة من المنتصف، وبدأ اثنان من المتخصصين في إخراج المومياء الموجودة بالداخل بمنتهى الحذر والحرص. قال هاشم مخاطبًا نجيب:

- هل سبق وشاهدت شيئًا مثل هذا؟

هز نجيب رأسه نافيًا وهو يعقد حاجبيه في دهشة:

- لا!

كانت المومياء تتخذ نفس شكل جلسة التمثال وتحيط بها طبقة من اللفائف الحريرية لكنها هشة ومتفحمة.. هتف هاشم وعيناه تلتمعان:

- يبدو ان أمامنا عمل صعب!

تم عمل فتحة طولية في الغطاء القماشي الخارجي للمومياء عند منتصف الصدر واستطاع إزاحة كل اللفائف كقطعة واحدة. ظهر تحت تلك اللفائف جسد آدم كاملًا، ورغم أنه شبه سليم إلا أن جلده كان رمادي اللون وهشًا للغاية، وتظهر فيه الكثير من التشققات. عيناه مفتوحتان قليلًا.. الشفة العليا كانت مرتفعة كاشفة عن أسنان أمامية كبيرة. وفوق الوجه والعنق توجد سلسلة معدنية ملفوفة بطريقة معينة ومنقوش عليها باللغة القديمة:

"أفِق من إغماءتك التي تنام فيها..

سوف تنتصر على كل أعدائك باسم الرب".

***

قبل الميلاد..

ترك آدم ساحة المعركة وتوغل بين ممرات وعرة ملتوية وضيقة حتى وصل إلى خيمته القابعة وراء الجبل.. نزل عن الفرس ودق سن سيفه في الأرض ثم دخل. تجاوز منطقة صغيرة مفروشة بالأبسط المزركشة حتى وصل إلى مخدعه واستكان قليلًا فوق أريكة واسعة ذات مفارش نسيجية ملونة محشوة بالريش. أمامه توجد مائدة خشبية مرصوص عليها أطباق ملونة من الخزف مغطاة بأقراص

خشبية.

أسند ظهره على المقعد ومد ساقية وأزاح فيما بينهما، ثم أغمض عينيه وانهمر الرضا مثل المطر على رأسه يرطب فؤاده. كان يومه طويل جدًا وكاد الجيش ينهزم لولا معية الرب. تنهد مرتاحًا وشعر بالسكينة تغمر روحه وتطرد كل التعب من جسده. لم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى أتت خادمته (عائنة) وهي تحني رأسها في أدبٍ، وفي يدها إبريق نحاسي، صبت منه في كوب خزفي بعض الماء البارد وقدمته إلى آدم الذي شرب منه مبتسمًا ابتسامة شاحبة. استأذنت أن تتركه يأكل وتذهب لتصريف بعض شؤون المكان، لكنه أشار لها أن تجلس في مكانها:

- عائنة.. ابقي هنا.

استجابت له وجلست على الأرض أسفل قدميه الغليظتين بعض الشيء، كان يمكنها أن تشم رائحة أصابعه العطرة، بياض مثل الشمع يتخلل أنامله، حناء حمراء في باطن القدم. مدت كلتا يديها وراحت تتحسس منتصف ساقه وأسفل الركبة بقليل وتضغط عليها بليونة ورفق، بينما بدأ آدم في إزاحة الأقراص الخشبية من فوق الأطباق، فتسللت الرائحة الشهية إلى أنفه وشرع يأكل على مهل وصمت حتى انتفخت معدته. حرر قليلًا جزءًا من ثيابه واسترخى وهو يزيح عمامته، فظهر أثر جرح قاتل في الرأس وبقايا أذن مبتورة.. قالت عائنة:

- كيف نجوت من الموت؟

أقام رأسه واعتدل في جلسته:

- إرادة الرب.

- لا أحد ينجو من ضربة كهذه!

استقرت عينه على وجهها وقال:

- أخبرتكِ أنها إرادة الرب!

تناول زجاجة ماء وارتشف منها رشفة طويلة، وحين عبرت إلى جوفة شعر أن جمرة من النار سقطت في بطنه، فقفز من مكانه قفزة مباغته عنيفة وحدق في زجاجة الماء وهو يقبض عليها في ذعر ثم ألقاها في الهواء صارخًا فاصطدمت بالجدار وتهشمت بصوت مزعج. قبض على حافة المائدة فانقلبت على الأرض وجذبته معها وتحطمت الأكواب والأطباق. شعر بألم رهيب يجتاح كيانه وبخناجر مسمومة تمزق كل شبر في جسمه، حاول أن يتماسك ويقاوم هذا الإحساس بالعجز الذي بدأ يستشري فيه، قاوم بكل ما أوتي من طاقة أخيرة، وكاد ينهض من الأرض، لكن فجأة شهق وتقيأ من فمه دمًا أسود أغرق ثيابه وصدره وشعر ذقنه الكثيف. نظر إلى عائنة التي وقفت تراقبه في برود وفي عينيها نظرة تشفي وانتقام، أشار تجاهها بيدٍ مرتجفة متوعدة وحاول أن يصرخ، فخرج صوته فحيحًا يشبه فحيح الأفاعي ولم يعد يرى سوى ظلالًا وضبابًا. انتفض جسده نفضة قوية وفي نفس اللحظة ضربت أقدام وسيقان باب الخيمة، فانفتح على جلبة وصخب وصيحات..

اندفع أتباع آدم للداخل فشاهدوا ما يحدث.. آدم مسجي على

الأرض جاحظ العينين متقلص الذراعين يئِن من العذاب. لم يحتاجوا إلى كثير من الذكاء ليفهموا حقيقة ما حدث.. عائنة سقت السم إلى كاهن الرب.. كانت تنكمش في زاوية الخيمة تحدق فيهم. أمسكها أحد الرجال من شعرها وانتزعها من مكانها وهي مستسلمة لا تقاوم. اجتمع حولها الباقون يبرحونها ضربًا ووخزًا بالخناجر حتى كاد يغشى عليها، فلحقها أحدهم وطعنها بالسيف في سرتها ودسه أعمق حتى خرج السيف من ظهرها، ثم أذهب خنجره في عنقها فشق حلقها وفصل رأسها عن جسدها.

انحنى أكبر التابعين سنًا نحو آدم وهبط حتى رأسه وألصق أذنه به يحاول أن يسمع ما يريد أن يقول ويستوعب كلماته الأخيرة التي خرجت غامضة متقطعة:

- لا.. موت.

***

الوقت الحالي..

في الطابق الأخير من مبنى منظمة S.C.P، سار نجيب عبر دهليز طويل مليء بالمرايا والأبواب الجانبية، وفي نهاية الممر باب معدني مغلق. انتظر حتى مسحت عدسة إلكترونية قزحية عينه ثم دفع الباب ودخل إلى غرفة يغمرها ضوء أزرق كئيب. الإضاءة ليست ساطعة لكنها كافية، ثمة صوت أزيز آتٍ من مكان ما في الحجرة، توقف بجوار هاشم الذي قال له بمجرد رؤيته:

- كل ما كنا نحتاج له فقط خلية واحدة نعمل على تنميتها

باستخدام وسائل ومعدات اصطناعية متطورة لنحصل على نسخة ثانية.

سأل نجيب في شغف:

- وهذه النسخة ستكون صورة طبق الأصل من الكاهن آدم؟!

- بالتأكيد.

قالها هاشم ثم ألقى نظرة على ساعة يده الرقمية، كانت تشير إلى الثامنة صباحًا. لم يذق طعم النوم منذ ثلاثين ساعة وسيظل ساهرًا لمدة أربعة وثلاثين ساعة أخرى. اشتد به الصداع ضاغطًا على جمجمته بعناد. تردد نجيب قليلًا قبل أن يقول:

- أعتقد أن أشخاص مثل آدم لا ينبغي تصنيعهم تحت الطلب.. هذا نوع من أنواع العبث. المعجزات ليست خيارًا يمكن أن نقوم بها. التفت له هاشم وأشار إلى الندبة العميقة الموجودة على خده وقال:

- حين كنت طفلًا، كنت أركب مع والدي السيارة في طريق عودتي من المدرسة. ذات يوم فشل والدي في تفادي سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس، مات والدي ونجوت أنا. لماذا نجوت؟ لأنها فقط إرادة الخالق. لا ينبغي أن يكون عند شك أن كل ما يحدث في هذا الكون هو إرادة الخالق حتى لو كان ذلك استنساخ البشر.

أسرع نجيب يقول:

- لا يوجد لدي شك طبعًا.. إنه فقط الفضول الفكري.

- وهل تسمي هذا فضولًا فكريًا؟!

- نعم.. شيء من هذا القبيل.

ربت هاشم على كتف نجيب وقال:

- نجيب.. أنا أتفهم حيرتك جيدًا، فقط ثق أن كل ما نفعله هو من تدابير ومشيئة الرب.

عاد نجيب يسأل في حيرة وهو يتمنى داخل نفسه أن يوقف هذا العبث:

- لماذا؟ ما الهدف من كل ذلك؟!

لوَّح هاشم بذراعيه في قوة وهو يهتف:

- أنت تعلم أن آخر دراسة قمنا بها أظهرت ازدياد عدد الملحدين على عدد أي ديانة أخرى. ما قيمة الحضارة بدون إيمان؟ نحتاج أن يعود الإيمان مرة أخرى.

وصمت لحظة ثم أضاف كما لو كان يتحدث مع نفسه:

- نحتاج إلى كاهن الرب العظيم.

ثم ضغط زرًا أحمر في جدار الغرفة، فانزاح الجدار ببطء والتمع ضوء كهرماني غامض. شهق نجيب واتسعت عيناه عن آخرهما وهو يهتف:

- مذهل!

ومن وراء الجدار الذي تحرك، ظهر حوض زجاجي ضخم داخله كائن بشري يسبح بهدوء داخل سائل فسفوري أشبه بالسائل الجنيني

الذي يتكون في رحم الأم.. الكاهن آدم.

***

الفصل الثاني

انفجار

بعد ليلة طويلة ممطرة، استعادت السماء لونها الأزرق الصافي، خرج الناس للشوارع وبدأت الحياة تعود لطبيعتها، وبدا أن هذا النهار سوف يكون ممتعًا.

في أحد مراكز التسوق، توقفت (غادة) أمام واجهة عرض متجر كبير بعد أن انتهت من جلسة العناية ببشرتها في صالون التجميل القريب من المتجر. تألقت عيناها وهي تتفرس في فستان أحمر قصير يتوسط الواجهة. تحركت قليلًا إلى اليسار، فانعكست صورتها على الزجاج واختلطت بالفستان وكأنها تلبسه، شعرت أنها جميلة فابتسمت. وجهها ضئيل ونحيف، شعرها أسود منسدل فوق كتفيها بليونة، لا تضع من مساحيق الزينة إلا القليل، ترتدي سترة شبابية وبنطالًا من الجينز وحذاءً خفيفًا أصفر بهت لونه من أثر الغسيل المتكرر.

في نفس اللحظة التي خرج لها أحد الباعة يدعوها للدخول لمشاهده بقية المجموعة الجديدة وهو يقسم لها أنها جاءت خصيصًا من فرنسا منذ أيام قليلة، أشارت إلى الفستان وسألت عن السعر، فتحولت ابتسامتها إلى ضحكة حين أشار البائع إلى ورقة السعر المعلقة أسفل الفستان وقالت بمرح:

- اعتقدت أنه رقم هاتف!

بادلها المرح:

- الجميع يقول هذا.

عادت تضحك:

- أسعار في متناول تجار الأعضاء البشرية.

سارت في مركز التسوق الذي يشبه عالمًا صغيرًا يسكنه أناسٌ عاديون ورجال أعمال وباعة في المتاجر وعمال المقاهي وأفراد أمن. كانت تنوي أخذ جولة قصيرة ثم البحث عن طاولة لشخص واحد في أي مكان هادئ وتناول فنجان قهوة تركية. دائمًا ما يضعون طاولات الشخص الوحيد في ركن منزوٍ وكأن ما فيه من وحشة لا يكفي.

واصلت السير في طريقها قبل أن تتوقف لكي تغلق سحاب سترتها المصنوعة من الجلدي الطبيعي، لكن مع ذلك وقعت عيناها عليه، والتقت نظراتها بنظرة رجل تعرفه جيدًا.. زوجها السابق!

قبل عشرة أعوم، عاشت معه قصة حب تقليدية انتهت بزواج استمر لمدة ثلاث سنوات فقط. خلال تلك المدة تعرضت لسلسلة من حالات الإجهاض واكتشفت أنها مصابة بمرض نادر في الرحم. فعلت كل ما بوسعها للعلاج والحفاظ على زواجها، لكن كل هذا لم يكن كافيًا، وحدث الانفصال وتحطم قلبها.. عاشت بعد ذلك فترة مريرة من حياتها إلى أن قررت أن تطوي تلك الصفحة وانتقلت إلى مدينة أخرى، لكن ها هي وبالصدفة تلتقي به. صحيح أنها كانت تعلم منذ زمن طويل أنهما قد يلتقيان مجددًا يومًا، إلا أنها لم تتوقع أن يكون

بتلك السرعة والصدمة.

خمنت أنه فوجئ بها كما فوجئت به، وبدا متوترًا وخجلًا على نحو غير طبيعي. لم يتجنب النظر إليها، واعتقدت أنه سوف يأتي للتحدث معها، إلا أنه أشاح بوجهه بسرعة، ونادى على امرأة أنيقة جدًا تغادر أحد المتاجر:

- هيا يا عزيزتي.. تأخرنا.

بصحبة المرأة كان يوجد طفل صغير ذو ابتسامة عذبة، يبلغ ربما الخمس أو ست سنوات، تبادلت غادة النظر بين وجه الطفل ووجه زوجها السابق ووضعت يدها على قلبها وأحست بغصة شديدة في حلقها. كان يجب أن يكون هذا الطفل هو طفلها هي.. كان يجب.

***

تسللت أشعة الشمس عبر الزجاج الملون لمكتب هاشم، وألقت أطيافًا من الألوان الزاهية على الجدران الداخلية. كان هاشم منهمكًا في قراءة تقرير ورقي ويبدو متجهمًا قبل أن يسمع طرقًا خفيفًا على الباب، ثم دخل نجيب وهو يحمل في يده ملفًا ضخمًا . أشار له هاشم بالجلوس قائلًا:

- تفضل..

قال نجيب بلا تمهيد وهو يضع الملف على المكتب أمام هاشم:

- لدي أخبار سيئة، وأخرى أكثر سوءًا.

حاول هاشم أن يبتسم وهو يقول:

- ابدأ بالأقل سوء..

أخرج نجيب بضع صور ومقالات من الملف الذي يحمله قائلًا:

- وصلت أخبار عن تسريب كبير للمعلومات لدينا.

دار هاشم ببصره سريعًا بين الصور والمقالات قبل أن يبتسم بثقة:

- لا تقلق بشأنها.. أنا من قمت بهذا التسريب.

لطالما استطاع نجيب فهم هاشم جيدًا، لكن هذه المرة لم يستطع. تمتم في دهشة:

- لا أفهمك!

أخرج هاشم علبة سجائره وأشعل واحدة وهو يقول:

- مجرد تمهيد لحين تقديم الكاهن آدم للبشرية وللتخفيف من أثر الصدمة وتأثيرها على نفوس المؤمنين قدر الإمكان. أنت تعلم أن هناك من يظن أن الاستنساخ هو تحدٍ لقدرة الخالق!

- قلت لي مسبقًا أن لا شيء يتم دون إرادة الخالق، لكن بالرغم من ذلك أشعر ببعض الارتباك، وأظن أن الاستنساخ ربما يكون من وظائف الخالق فقط.

- أنت الآن اقتربت قليلًا من فهم المعضلة التي يعيشون فيها. بالضبط مثل معضلة الإرادة الحرة، وهل الإنسان مخير أم مسير؛ إذا كان مسيرًا ولا يملك إرادته الحرة فلماذا يتم عقابه بالنار؟ وإذا كان مخيرًا، ألا يتنافى ذلك مع فكرة القضاء والقدر؟!

- لا أعلم..

- دعك من تلك الأسئلة السفسطائية.. المهم أنني قد اتخذت قراري.

ثم عقد حاجبيه بشدة واستطرد قائلًا:

- علينا أن نقوم بتسريع عملية نمو المستنسخ. أحتاج أن يكون جاهزًا في أسرع وقت.

- لماذا؟!

- لدي حدس أن هناك شيء سيئ سوف يحدث، لطالما كنت أثق في حدسي، لهذا علينا أن نستبق الأحداث ونعلن عن الكاهن في أسرع وقت وتقديمه بالشكل المناسب مع أفضل هالة وقدسية ممكنة.

توترت أعصاب نجيب وهو يقول:

- حسنًا.. هذا ينقلنا إلى الأخبار الأكثر سوءًا. منذ أسبوع، توقف جسد آدم عن النمو عند سن ست سنوات، واليوم هناك تراجع وانكماش في الحجم على نحو غير طبيعي، وكأن الخلايا ترفض التكاثر والانقسام.

قال هاشم وقد ظهر الضيق على وجهه:

- نعم، هذا ما يمكن أن نطلق عليه خبرًا سيئًا بلا شك.

غمغم نجيب:

- لكن هناك حل..

سأله هاشم في اهتمام:

- ما هو؟

- يوجد اقتراح من الفريق الطبي باستخدام هرمونات النمو فائقة القوة.

وأخرج ورقة مطبوعة من الملف وقدمها له وهو يستطرد:

- تم قياس المخاطرة والنتيجة تبدو معقولة.

راجع هاشم الأرقام والنسب المكتوبة والتوصيات بعناية شديدة. بدا وكأنه يعتصر ذهنه في عنف، قال دون أن يرفع وجهه عن الورقة:

- الأرقام تبدو جيدة.

قال نجيب في سرعة:

- في خلال بضعة أشهر يمكن أن يصل إلى سن الأربعين.

تراجع هاشم في مقعده وشبك أصابع كفيه أمام وجهه وهو يقول:

- هذا إذا سار كل شيء على ما يرام.

- هي مخاطرة محسوبة.

ارتسمت الصلابة على ملامح هاشم ثم نطق بكلمة واحده:

- نفِّذ..

هز نجيب رأسه وجمع كل أوراقه بسرعة وقال:

- تمام.

ثم غادر المكتب دون كلمة إضافية. تابعه هاشم وهو يغلق الباب خلفه ثم ضغط زر الاتصال بينه وبين سكرتيرته قائلًا:

- فنجان قهوة بلا سكر.. حالًا.

لم تمضِ دقائق حتى كانت القهوة أمامه وراح يتناولها على مهل. مر الوقت.. فجأة، هز انفجار قوي مركز الأبحاث، وفي جزء من الثانية اشتعلت النيران في كل أرجاء المبنى وتعالت الصرخات الرهيبة. أدت قوة الانفجار إلى دفع هاشم بعنف في الهواء حيث ارتطم بالباب واصطدم بالشظايا المتطايرة. فقد الوعي وسقط فوقه جزء من سقف المبنى، ورغم ذلك ظل على قيد الحياة على الرغم من الإصابات العديدة التي ملأت جسده.

حين استعاد وعيه بعد بضع دقائق، نهض من بين الحطام وهو يشعر أنه يعيش كابوسًا مفزعًا. طنين مؤلم ضرب أذنيه غطى على أصوات صراخ الضحايا. سار مترنحًا بين الممرات التي يعمها الدخان حتى وصل بصعوبة إلى غرفة الاستنساخ وهو يدعو أن تكون نسخة الكاهن آدم بعيدة عن التفجير، لكن حين دخل وجد أن كل شيء تم تدميره والنار تنفث لهيبها مثل ثعبان ناري جائع، وفي منتصف الغرفة كانت توجد بقايا ممزقة وجثة متفحمة.

***

حين خرجت غادة من مركز التسوق، رأت في وجهها الشمس الغاربة معلقة في السماء حمراء محتقنة، والظلال تملأ الشوارع حولها داكنة وعميقة. نظرت في ساعة يدها، رأت أنها تجاوزت

الخامسة مساءً بقليل، كان النهار قد مر دون أن تشعر به، أدارت ظهرها للشمس التي راحت تغرق بين السحب المنتشرة على صفحة الأفق الممتد، وشرعت تسير في الاتجاه العكسي.

بعد اللقاء الصادم مع طليقها منذ قليل، وكثرة التفكير فيه، صار ينتابها هاجس أنها تحمل كل إرهاق العالم فوق كتفيها ولا تستطيع التخلص منه. أحست بضيق في التنفس وشعرت أنها ستفقد الوعي، لكنها استعادت قواها قليلًا حين وصلت إلى منطقة تحت الإنشاء لا يوجد بها أحد، وكأن البعد عن البشر أعاد لها صلتها بالحياة.

مرت من أمام عمارة نصف مبنية، وفجأة تناهى إلى مسامعها صوت بكاء طفل يشبه الأنين المكتوم لا يفصلها عنه سوى ثلاثة أو أربعة امتار. صاحت في توتر:

- من هناك؟!

لكن بكاء الطفل لم ينقطع، كان بكاءً حارًا انفطر له قلبها، فلم تحتمل أن تظل في مكانها، ودارت حول جدار من الألواح الخشبية المكدسة والمواسير المصنوعة من الحديد الصلب. شاهدت شيئًا يبدو مثل شبح يجلس على كومة من الرمل والحجارة، حدقت فيه وعيناها تتسعان والرهبة تملأ أحشاءها. طفل مفقود في السادسة من عمره تقريبًا، شبه عارٍ، يلف جسده بقطعة قماش بالية والبرد يخترقه ويلتهمه. كان ينكمش على نحو مثير للشفقة ويرمقها بلا حيلة. التقت نظراتها بنظراته المرتعشة وعبرت جسدها موجة باردة، وتجمد قلبها للحظة وبدأ شعور غريب بالسيطرة عليها. قالت وهي تتجه

نحوه:

- أنت بخير؟!

كان وجهه وأطرافه مائلة للزرقة، وبدت عيناه الواسعتان مغرورقتان بالدموع، وشفتاه ترجفان على نحو عجيب، مما جعلها تسأله مشفقة:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

لكنه قفز من مكانه وابتعد عنها وشرع بالهروب منها.. صاحت لتستوقفه:

- انتظر!

وبدأت في ملاحقته بإصرار. راح الطفل يتوغل بين أعمدة العمارة ويركض بكل ما أوتي من قوة، ضاعفت غادة من سرعتها إلى حد انقطاع نفسها، لكنه كان أسرع منها واختفى. وقفت جامدة في حالة ثبات تحدق في آخر مكان شاهدته فيه ثم سارت ببطء وتعمقت قليلًا، لمحت آثار أقدامه ومشت خلفها حتى وجدته يقف خلف حائط لم يكتمل بعد. قالت:

- لا تخف..

هذه المرة تقهقر إلى الوراء بضعه أمتار، لكن دون أن يهرب، بل وقف في مواجهتها يتفرس ملامحها. كانت غادة ترتجف من فرط الانفعال وهي تقول:

- اسمعني، سأعيدك إلى والديك!

لم يبدُ عليه أنه قد سمعها، عادت تقول وهي تحاول أن تبتسم لتبث بداخله بعض الطمأنينة:

- أريد أن أساعدك..

ثم خلعت سترتها الجلدية وناولتها للطفل وأردفت:

- أنت ترتجف بردًا!

لم يمد لها يده لالتقاط السترة، فوضعتها على كتفه وقالت:

- يا إلهي! جسدك بارد كالثلج!

نظر في عينيها مباشرةً وقال شيئًا بصوتٍ خافت لم تسمعه.. سألته:

- ماذا تقول؟!

ارتفع صوت الطفل قليلًا لتميز أنه يقول:

- أنا جائع..

فتحت حقيبتها وأخرجت منها قطعة شكولاتة ومدتها له. نظر إلى اليد الممدودة في خوف وشك، رسمت غادة على شفتيها ابتسامة وقالت:

- هيا، لا تقلق..

تناولها منها في حذر. مضت تتفحصه كما لو كان بوسعها أن تقرأ ما يدور في عقله، بينما يأكل بنهم وعجالة، لاحظت آثار إبر على يديه وعنقه وساقه، شعرت أنه يتقاسم معها العزلة، الوجع، الألم، الفقدان.

ماذا يفعل هنا في مثل هذا التوقيت وتلك الحالة؟ إنه طفل تائه، ما من شكٍ في هذا.. قد يكون هاربًا من ملجأ أو من زوجة أب شريرة1 خلال ثوانٍ رفف هذا الاحتمال في عقلها.. سألته غادة:

- أين أهلك؟

- لا أعلم.

قال ذلك ثم عاد إلى صمته. تريد أن تساعده، لكن عليها أولًا أن تعرف عنه أكثر.. سألته مرة أخرى:

- كيف وصلت إلى هنا؟

نظر إليها للحظة في صمت قبل أن يقول:

- لا أتذكر.

خامرها شعور بعدم الارتياح:

- وضح لي.. أريد أن أفهم!

انتابته فجأة رؤيا وحشية، حيوان ضخم يعوي خلال الليل. صاح مرتبكًا:

- لا يوجد شيء للفهم.. أنا لا أتذكر شيئًا.

نظرت إليه بتمعن:

- حتى اسمك؟!

حينئذ انبثق في رأسه شيء من الماضي:

- هذا هو الشيء الوحيد العالق في ذاكرتي.. اسمي.. اسمي...

صاحت في لهفة وقلبها يدق مثل مطرقة حامية الوطيس:

- تكلم!

***

دقَّ هاشم سطح مكتبه بقبضته في قوة وهو يقول لمدير أمن المنشأة ومساعده في صرامة غاضبة:

- فشل.. فشل ذريع!

بدا مدير أمن المنشأة شديد التوتر وهو يجيب:

- إن ما حدث أمر غير طبيعي.

قال هاشم في صرامة أكثر:

- هناك فريق من المحققين التابعين للمنظمة سوف يقومون بالاستجواب والتحقيق مع كل أفراد الأمن لمعرفة المخرب.

قال مدير الأمن في حدة:

- رجالي على أقصى درجات الحذر والحيطة.. هناك اختراق للمنظمة من الداخل وليس من الخارج!

هز مساعد مدير الأمن رأسه موافقة على كلام رئيسة، الأمر الذي اعتبره هاشم غير مقبول فهتف في غضب:

- أرجوك لا نقاش.. فقط نفِّذا!

قال مدير الأمن في عصبية:

- أريد أن أقول...

قاطعه هاشم:

- نفِّذ..

ران الصمت لحظة بعد عبارة هاشم الأخيرة وتطلع الرجلان بعضهما إلى بعض وكأن كل منهما يدرس ردة فعل الآخر قبل أن يقول مدير الأمن في خضوع:

- حسنًا..

أشار له هاشم بالانصراف وانتظر حتى غادر هو ومساعده ثم التفت إلى نجيب الذي كان يقف صامتًا منذ البداية وقال له:

- من الجيد وجود هذا المقر الاحتياطي لنكمل عملنا..

وأشار إلى نجيب:

- ابدأ..

اتجه نجيب فورًا إلى شاشة كبيرة نسبيًا استقرت فوق مائدة معدنية عند ركن الغرفة وضغط على حافة الشاشة فومضت بضوء أبيض لامع ثم ظهرت عليها كل لقطات كاميرات المراقبة وبدأ يتنقل من صورة إلى أخرى ويحرك التوقيت بمهارة وسرعة حتى وصل إلى غرفة معمل الاستنساخ وتحديدًا قبل عشر دقائق من التفجير. قال نجيب:

- لحسن الحظ أن كل ملفات كاميرات المراقبة في المختبر يتم تخزينها تخزينًا سحابيًا.. فقط مجرد اتصال بالإنترنت وكل شيء ينتهي.

وضغط على الشاشة وحرك إصبعه مرة أخرى فاتسع المشهد وصارت الصورة بجودة واضحة ممتلئة التفاصيل يظهر فيها المستنسخ داخل حاوية زجاجية خاصة وجسده يسبح ببطء في السائل الفسفوري وقد اتصلت به عشرات الخراطيم والأجهزة الرقمية التي تراقب مؤشراته الحيوية ونبضات قلبه ووصلاته العصبية..

كان يحيط بالمستنسخ خمس علماء يرتدون بدلًا خاصة شبيهه ببدل رواد الفضاء ويقومون بمراجعة كل الأرقام التي تظهر على الأجهزة.. استمر المشهد بضع دقائق ثم خرج أربعة علماء وتبقى الخامس يفحص شيئًا في الغرفة وفجأة اهتزت الصورة على الشاشة وحدث الانفجار الرهيب!

تمتم هاشم:

- المخرب وضع قنبلة في الداخل..

قال نجيب في خفوت:

- أخبرتك أن تسريب معلومات عن المشروع قد يثير حفيظة بعض المتعصبين دينيًا.

رمقه هاشم بنظرة حادة:

- أتلمح إلى أنني أخطأت..؟

استدرك نجيب موقفه وقال بسرعة:

- لا.. لا.. أعتذر طبعًا.

حرك هاشم مؤشر المشهد وأعاد الصورة قليلًا حتى لحظة العلماء الخمسة.. انعقد حاجبا هاشم في شده واقترب يلقي نظرة أكبر على الشاشة وهو يغمغم:

- عجبًا!

أطلت نظرة حذرة من نجيب وسأله في اهتمام:

- أهناك خطب ما..؟

أشار هاشم بسبابته على أحد العلماء الخمسة:

- هل يبدو هذا مألوفًا؟

حدق نجيب في صورة الرجل الذي يتحرك بثقة في المعمل قبل أن يقول:

- لا أجد شيئًا غريبًا!

- لاحظ جيدًا..

دقق نجيب النظر.. شاهد أحد العلماء الخمسة يضع كتلة معدنية صغيرة أسفل الحاوية الزجاجية مستغلًا انشغال الآخرين.. قال نجيب في توتر:

- هذا يعني أن مدير الأمن محق وأن الاختراق كان من الداخل!

هز هاشم رأسه في أسف:

- يبدو ذلك فعلًا!

ثم أضاف:

- ليس هذا كل شيء.. راقب ما سيحدث بعد ذلك..

عاد نجيب يتابع المشهد الذي يتحرك ببطء.. العلماء يغادرون الغرفة واحدًا تلو الآخر حتى تبقى نفس العالم الذي وضع القنبلة.. ظل واقفًا في مكانه أمام الحاوية الزجاجية دون أن يتحرك وكأنه أصيب بنوع من أنواع الشلل حتى حدث الانفجار وانسحق جسده!

عقد نجيب حاجبيه وقال بتعجب:

- غريب! لماذا لم يغادر وظل موجودًا رغم أنه انتهى من وضع القنبلة؟!

قال هاشم:

- يبدو كأنه تعمد الموت!

وأكمل حديثة بشيء من العصبية:

- دعنا منه الآن، سوف يتولى فريق التحقيق أمر هذه النقطة.

ثم صمت قبل أن يضيف:

- أما الآن دعنا نركز على النقطة الأهم.

وحرك مؤشر المشهد وأعاد الصورة قليلًا مرة أخرى حتى وصل إلى اللحظة التي تسبق التفجير بثوانٍ وقام بتكبير جزء من الشاشة وعاد يقول بحزم:

- هذه النقطة..

اتسعت عين نجيب وهو يشاهد شيئًا يتعارض مع كل قواعد العقل والطبيعة. كان المستنسخ ساكنًا تمامًا داخل الحاوية الزجاجية، وتدريجيًا ظهرت رعشة في جسده، وبدأ يتحرك ببطء شديد، تحولت الحركة البطيئة إلى تشنجات قوية وراح يضرب بكلتا قدميه ويديه الجدران كأنه يريد الخروج!

غمغم نجيب بانفعال:

- أعتقد أنه شعر بالخطر!

تغير لون السائل الفسفوري وتحول للون الأزرق وانتشرت بداخله فقاقيع كثيرة كأنه يغلي على درجة حرارة عالية، وفجأة اختفى المستنسخ من داخل الحاوية وتلاشى كالملح الذي يذوب في الماء قبل أن يحدث الانفجار بجزء من الثانية!

شهق نجيب في ذهول:

- مستحيل!

استرخى هاشم في مكانه وقال مبتسمًا:

- إنها الكرامات يا عزيزي.. كرامات كاهن الرب.

والتقط نفسًا عميقًا من الهواء قبل أن يضيف:

- السؤال هنا.. أين انتقل؟!

***

شقة غادة..

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً بقليل حينما فتحت غادة باب الشقة بحركة سريعة وأضاءت الأنوار وهي تنادي:

- آدم.. تعال.. لا تخف..

تقدم آدم للداخل بخطوات حذرة وهو يتلفت يمينًا ويسارًا ويبدأ تأملها باهتمام. شقة عادية تمامًا ذات طابع أنثوي تفوح منها رائحة الوحدة.. أثاث بسيط وأنيق في نفس الوقت.. مكتبة صغيرة تغطي أحد الجدران مليئة بالروايات وكتب الشعر.. قال بهدوء:

- المنزل جميل..

ابتسمت:

- لديك موهبة فطرية في المجاملات!

أشار إلى صورة بالأبيض والأسود معلقة على الحائط وسأل بفضول:

- أهذه أنتِ؟!

- نعم.. كنت في نفس عمرك تقريبًا وقت التقاطها.

اقترب من الصورة وهو يقارن في عقله بين ملامح تلك الطفلة

التي تبتسم ابتسامة ملائكية وتحمل كل سعادة الدنيا وبين تلك المرأة التي تقف بجواره وقد أوشكت الحياة أن تنسحب منها.. قال:

- ماذا حدث لكِ؟

كان يتكلم بطريقة توحي أنه أكبر سنًا وعقلًا مما يبدو عليه بكثير. أجابت غادة وقد تقلص وجهها قليلًا:

- لا شيء.. فقط كبرت.

- ما زلتِ جميلة!

أسعدتها عبارته على نحو غريب وغمغمت:

- أشكرك.

ثم ترددت قليلًا قبل أن تسأله:

- بيني وبينك يا آدم.. هل تعرضت لأي نوع من أنواع الاعتداء؟

- ماذا؟ لا أفهمكِ!

قالت بتوتر لم يفارقها منذ أن التقت به:

- في الحقيقة أخشى أن تكون قد تعرضت لانتهاك جسدي.

هز رأسه:

- أنا بخير.

ناولته طقم ملابس يخص ابن أختها وقالت:

- تفضل.. أعتقد أنه قد يناسبك.

لاحظت تردده فأشارت له بعيدًا:

- الحمام هناك..

غاب آدم عشر دقائق داخل الحمام ثم عاد وهو يرتدي الثياب النظيفة.. كانت واسعة عليه بعض الشيء وبدا فيها بريئًا جدًا.. قال بمرح:

- هل أبدو جيدًا؟

- إنها تليق بك..

- هذه ملابس (أشرف) ابن شقيقتك أليس كذلك؟

أجابت بحيرة وقلق:

- نعم.. أخبرني كيف عرفت؟!

تنهد قائلًا:

- لا أدري.. فقط الاسم قفز في عقلي.

- أخبرني.. هل تتذكر أي شيء آخر غير اسمك؟ من أين أتيت؟ أين أهلك؟ وماذا حدث لك؟!

- لا أذكر شيئًا.. أشعر فقط أن عقلي يغرق داخل بحيرة سوداء وكلما حاولت التذكر غرقت واختنقت.

ألحت عليه:

- حاول أن تتذكر.. ركز جيدًا..

أغمض عينيه بشدة.. بدا أنه يغرق فعلًا داخل تلك البحيرة السوداء التي تحدث عنها.. تبدو بلا قاع.. استمر في السقوط البطيء.. بدا الوقت طويلًا في الظلمة وراح بالتالي يشعر أن كل جيده مخدرًا.. ضغط زناد عقلة بضع مرات حتى اشتعلت خلايا مخه وتوهجت.. جسده يطفو إلى الأعلى.. أوشك على أن يصل إلى سطح البحيرة.. الضوء يقترب.. راحت تتراءى له صور وتهيؤات مزعجة..

فجأة، أطلق صرخة هائلة وارتمى على الأرض وأصيب بحالة من حالات التشنج أو الصرع وراح جسده يرتعش وأسنانه تصطك ببعضها بطريقة مرعبة.. هرعت نحوه غادة وهي تصيح:

- آدم، أنت بخير؟

انقلبت عيناه إلى اللون الأبيض وانتقلت روحه إلى عالم آخر في لمح البصر.

الأمطار تهطل بشدة والسماء حمراء بلون الدم يتخللها كائنات رمادية تطير في الأجواء وتطلق صرخات أشبه بعواء الكلاب المسعورة..

شاهد رجل ضخم يسير في شوارع طينية لمدينة قديمة ويمسك في يده ما يشبه منجلًا ذا قبضة مصنوعة من جمجمة إنسان.. الجثث الممزقة تملأ الأرض من حوله، وبشر كثيرون يصرخون ويهربون نحو ما يبدو أنه كهف في جبل عظيم!

اقترب هذا الرجل من آدم الذي كان يقف مرتعشًا وقال:

- آدم.. أهذا أنت؟

- أنا.. أنا...

- لكنك ميت!

ثم مد له يده الممتلئة بالدماء قائلًا بصوت يخرج من فمه كالفحيح:

- تعال معي..

- إلى أين؟!

- فقط تعال.. سأخبرك بكل شيء.

في نفس اللحظة كانت غادة تحتضن آدم وهو لا يستجيب لها إطلاقًا بينما تمسح على وجهة ولا تدري ما أصابه أو ما يدور داخل عقله. قالت وهي على وشك الانهيار:

- سوف تكون على ما يرام.. تماسك.. سوف أتصل بالإسعاف حالًا..

فجأة ارتجف في مكانه ارتجافه قوية ثم أغمض عينيه واستكان جسده لدرجة ظنت أنه قد مات فصرخت بارتياع:

- آدم.. آدم..

لكنه ما لبث أن عاد إليها وفتح عينيه مرعوبًا ونظر لها كأنه يراها للمرة الأولى:

- أمي.. أهذه أنتِ؟

ارتبكت وفتحت فمها لتنفي لكنها بدلًا من ذلك سمعت نفسها تجيب:

- نعم يا عزيزي.. هذا أنا.. والدتك.

***

الفصل الثالث

مفقود

بعد شهر من الانفجار:

بينما ضوء النهار يتلاشى ببطء باتجاه الغسق امتلأت شوارع القاهرة بالورود الحمراء والقلوب وتراص العشاق على ضفاف نهر النيل متشابكي الأيدي. تنفست غادة بعمق وهي تجلس في شرفة منزلها وتنظر إلى الشارع نظرة فارغة.. شارع واسع يكسوه إسفلت قديم بعيد عن زحمة المرور وقليلًا ما تمر به السيارات عكس الشوارع المماثلة.

ابتسمت في سعادة طفولية وكادت تفلت منها ضحكة عالية حين لمحت سيارة متهالكة تحمل دبًا من الفرو عملاقًا بحجم دب حقيقي. نهضت من مكانها وأوصدت النوافذ وأحكمت إغلاق باب الشقة جيدًا ثم ذهبت وجلست على مقعد وثير في ركن غرفة المعيشة أمام التلفاز.

على الشاشة قطعت القناة برامجها المعتادة لتنقل بثًا حيًا عن وقائع مؤتمر صحفي لجماعة دينية جديدة بدأت تعلن عن وجودها، وقال زعيمها الغامض أن هدف الجماعة الوحيد هو محاربة منظمة (S.C.P) في الشرق الأوسط..

تظاهرت غادة بأنها تتابع المؤتمر الصحفي لكنها كانت تنظر بعينين جامدتين إلى (آدم) الذي جلس أمام طاولة خشبية محدقًا إلى

شاشة الهاتف بتركيز ثابت وجامد. لقد مضى على وجوده شهر كامل.. جهزت له أفضل غرفة أطفال في العالم.. زينت حوائط الغرفة كلها بصور كارتونية وطيور وبحر أزرق.. السقف وضعت فيه نجومًا فسفورية ملونة تضيء في الظلام.. السرير على شكل سيارة سباق مثل الموجودة في حلقات مسلسل سابق ولاحق.

أما آدم فقد كان الأمر بالنسبة له يدور في اتجاه آخر تمامًا.. كان لا يذكر أي شيء إطلاقا.. مجرد مشاهد مبتورة لأجساد تتلوى في مطر من نيران وهناك شخص يصرخ: أيها الجاهل.. الرب غاضب عليك!

ثم تتلاشى المشاهد ولا يبقى بعدها غير ظلمة حالكة دامسة تحيط به.. هل كان يعيش في تلك الظلمة فاقدًا حس الزمان والمكان؟ لم يكن يعلم إجابة عن هذا السؤال.. فقط يعلم أن هناك الكثير من الألم والصرخات والموتى تختفي داخلها.. كان يدرك أنه ليس مجرد طفل طبيعي.. يخفي ذلك ويحاول أن يتصرف بطريقة عادية لكن عبثًا ما كان يصنع. من الغريب حقًا أن كل تلك المشاعر المتضاربة والصارخة والعنيفة كان قادرًا على إخفائها!

هتفت غادة:

- آدم.. نصف ساعة وتذهب إلى فراشك.

ابتسم وهو ينظر لها:

- امي.. أرجوكِ ساعة أخرى!

لم تستطع أن تقاوم نظرته الملائكية، فابتسمت بدورها وقالت:

- لتكن ساعة إذن يا عزيزي..

ثم ذهبت وأحضرت راديو بني اللون ووضعته بالقرب منها ومضت تستمع إلى أغانٍ قديمة تذكرها بطفولتها البعيدة وحاولت أن تسترخي وتنام.. غدًا لديها يوم عمل طويل. غمرها الرضا وشعرت أنها أخيرًا نالت مكافأة السماء؛ طفل جميل كما حلمت دومًا.

فجأة، سمعت صوت أقدام ثقيلة تمر من أمام باب الشقة وتجري مسرعة.. شعرت بارتجافه في صدرها ودق قلبها بعنف وتوترت.. تخاف أن يأتي أحد ويأخذ منها آدم.. استكانت واسترخت مرة أخرى في مكانها بعد أن ابتعدت الأقدام.. تحاول إخراج تلك الهواجس من عقلها مرارًا وتكررًا لكنها تفشل.. أرادت أن تنادي على آدم لتحتضنه إلا أن ما حدث بعد ذلك كان مرعبًا بحق؛ في البداية اشتمت رائحة كبريت عابرة ثم شاهدت رجلًا شاحب البشرة كالأموات يقف وراء آدم ويضع يده على كتفه.. الأكثر رعبًا أن هذا الرجل كانت عيناه بيضاء تمامًا، فمه مخيطٌ بخيط أسود، الدماء تنزف من جروح عميقة في عنقه وتسيل منه إلى أعلى باتجاه السقف عكس اتجاه الجاذبية!

فركت غادة عينيها وأعادت النظر إلى (آدم) مرة أخرى.. لا أثر للرجل.. آدم يجلس كما هو يحدق في شاشة الهاتف وعلى شفتيه تعلو ابتسامة. فكرت أن ما حدث مجرد أوهام وهلاوس بصرية.. جزء من ألعاب العقل الباطن.. صحيح أنها تبدو حقيقة وواقعية إلى حد كبير لكنها قطعًا أوهام ليس أكثر.

- أمي.. أنت بخير؟

أفاقت من شرودها على صوت آدم الذي اقترب منها، واكتشفت أن يدها ترتجف ولا تستطيع السيطرة عليها.. ضمت يدها إلى صدرها لتخفيها وقالت بارتباك:

- أنا.. أنا بخير يا عزيزي.. هل تريد شيئًا؟

صمت للحظات ثم ناولها الهاتف وقال بهدوء:

- الساعة انتهت.

انتبهت غادة أن ساعة قد مرت بالفعل رغم أنها لم تشعر بها.. قالت:

- حسنًا.. إلى غرفتك يا عزيزي.

قال وهو يقبلها فوق جبينها:

- أحلام سعيدة.

ربت على رأسه بحنان وقالت:

- وأنت أيضًا..

اتجه آدم نحو غرفته لكن قبل أن يدخل تردد قليلًا، ثم التفت لها بغتة وعاد يسألها وهو ينظر إلى عينيها مباشرة كأنه يريد سبر أغوارها:

- هل أنت واثقة أن كل شيء على ما يرام؟ تبدين شاحبة!

كان يمكنها أن تحكي له ما حدث إلا أنها قالت في حسم:

- لا تقلق.. صدقني أنا بخير.

لكن في داخلها كانت تعلم أنها.. تكذب.

***

كان الهاتف يرن حين دخل هاشم مكتبه وأسرع يجيب:

- نعم.. بالتأكيد..

استمرت المحادثة خمس دقائق وظهر خلالها الاستياء والضيق على وجه هاشم وهو يستمع إلى تأنيب رئيس المنظمة دون أن يعترض أو يناقش بكلمة واحدة. أنهى المكالمة ثم وضع سيجارة في فمه وأشعلها بقداحة تحمل نقوشًا ذهبية وحروفًا باللغة اللاتينية، ثم دار حول مكتبه وتطلع من خلال زجاج النافذة المغلق نحو الطريق. نفث نفخة عصبية من الدخان في الهواء.. ثمة فتاة تمر في الشارع.. تابعها ببصره وقد انقبضت أسارير وجهه.. كانت تضع نظارة ذات إطار أسود وترتدي قلنسوة وردية وبنطلون ضيق من الجينز الأزرق، تحمل حقيبة كتف صغيرة، وبين يديها كتاب وأوراق كثيرة.. خمن أنها في السنة الأخيرة من الجامعة. كانت هي الفتاة الوحيدة التي تسير في الشارع بمفردها ولسبب ما استشعرت أن هناك من ينظر إليها. رفعت وجهها وضيقت ما بين حاجبيها ونظرت نحوه.. التقت أعينهما معًا.. يبدو أنها تريد أن تقول له شيئًا لكنها في نهاية المطاف أكملت طريقها.

يفكر فيها.. تختفي من أمام وجهه وأمام عينيه.. يتبدل المشهد الذي أمامه ويعود بذاكرته إلى الوراء وتظهر فتاة أخرى.. فتاة ذات شعر أحمر جميلة جدًا مثل القمر، لكنها قمر ميت، ملقاة داخل أحد

الأزقة الخالية من المارة وآثار الإبر المخدرة على ذراعيها مثل ثقوب مصاصي الدماء.. بجوارها صديقتها المدمنة.. نفس الفتاة التي مرت من أمامه منذ قليل.. كانت ترتعش الفتاة من الخوف وهي تفكر كيف تتخلص من مصيبتها.. تفكر وتفكر.. لا تجد غير أن تخفي الجثة ناحية أكثر منطقة يسودها الظلام.. تستجمع قوتها وتجرجر الجثة.. تشعر بالألم ساطور حاد يكاد يشطر ظهرها.. تتوغل في عمق الظلمة وتخوض في الطين والقاذورات وذنوب البشر.. فجأة تبرق عينان ناريتان وتسمع زمجرة بشعة ثم تشاهد كلبًا مسعورًا ذا مظهر مخيف يشق العتمة.. تصرخ وتجري مسرعة وهي تتخبط وتسقط وتترك الجثة خلفها. يقترب الكلب من الجثة يشمها في جوع.. يبدأ بالوجه حتى يصل إلى منطقة البطن.. يغمد أنيابه ينتزع جزء من اللحم والجلد ويبدأ في نهش البطن والتهام الأجزاء الطرية منها.

صرخ هاشم في ارتياع وتبدل مشهد ذكرياته من جديد.. هذه المرة كان داخل المشرحة بجوار جثة ابنته الممزقة وفي عقله يرن صوت زوجته بقوة مثل أجراس نحاسية:

- أنت السبب.. أنت السبب..

ساد صمت تام لفترة ليست بالقصيرة قبل أن ينتهي هاشم من اجترار ذكرياته المؤلمة. أغمض عينيه وظل ساكنًا كأنه يحث نفسه على تجاوز الماضي لكنه لا يستطيع. إصراره على استكمال مشروع استنساخ (آدم) ينبع من الماضي.. سوف يطلب من(آدم) أن يعيد له ابنته إلى الحياة.. هذه هي مكافأته وجائزته الكبرى التي يريدها ويتمناها.

فتح هاشم عينيه مرة أخرى يأخذ نفسًا عميقًا وعاد يجلس وراء المكتب.. ضرب بأصابع يده الغليظة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر بخفة وبدأ كتابة رسالة إلى زوجته.. توقف فجأة ثم وضع يده على وجهه وقال:

- ما الذي أفعله بحق الجحيم!

مرت بعد ذلك ثوانٍ أخرى، سمع رنين الهاتف لكنه لم يرفع السماعة، لا يظهر على وجهه أي تأثير.. ترك الهاتف يرن دون أن يزحزح عينيه عن شاشة الكمبيوتر، وفي نفس الوقت بدأ المجيب الآلي في الرد:

- معذرة لا يمكنني استقبال مكالمتك.. اترك رسالة بعد سماع الصافرة.

أتى صوت خفيض لفتاة يشي صوتها أنها تشعر بالتوتر:

- هذه أنا.. ارفع السماعة من فضلك.

التقط سماعة الهاتف دون أن يرد.. سمع صوت الفتاة من جديد وهي تقول في ارتباك:

- كنت.. كنت أمر قريبًا من مكتبك القديم وأعتقد أنني قد رأيتك.

استمر في صمته بينما واصلت حديثها:

- سيد (هاشم).. أريدك أن تسامحني على ما حدث لابنتك.. أنا...

لكنه أغلق الخط في وجهها بقوة ثم عاد وضغط بشدة على الفأرة ونقر نقرتين وقام بمسح محتوى الرسالة التي كان يريد إرسالها إلى

زوجته.

بعد مدة يسمع طرقًا خفيفًا على الباب.. في حدة وهو يحاول أن يستعيد صرامته: تفضل.

دخل نجيب إلى المكتب وهو يحمل مجموعه ضخمة من الملفات والأوراق تحت ذراعه وحاول أن يرسم على وجهه ابتسامة:

- أعتذر عن التأخير.

ثم جلس ونظر في وجه هاشم الذي بدا منهكًا:

- تبدو متعبًا!

هز هاشم رأسه:

- أنا بخير.. فقط لم أنم جيدًا ليلة أمس.

وضع نجيب الأوراق والملفات التي يحملها على طرف المكتب وقال:

- هل ما نقوم به يعتبر شيئًا أخلاقيًا؟

بدا هاشم شديد الحزم وهو يقول:

- الغاية تبرر الوسيلة.

تردد نجيب للحظات قبل أن يقول في حذر:

- أتساءل إذا كان استنساخ كاهن الرب في هذا الزمن سيكون له تداعيات خطيرة!

- بلا أدنى شك، وربما سنضطر إلى الدخول في صراع مباشر مع ديانات العالم، لكن تأثيره سيكون أفضل للبشرية في النهاية.

بدا نجيب غير مقتنع وهو يقول:

- لست أظن أن هذا سيفيدنا كثيرًا، بالعكس أعتقد أن تأثيره قد يكون مدمرًا، كما أنه ليس من الأخلاقي ما سوف...

قاطعه هاشم في صرامة وأشار نحوه بسبابته:

- نجيب هذا يكفي.. هل تسمع.. هذا يكفي!

كان جسده يرتجف بالكامل وهو يضيف:

- أخلاقك واعتقاداتك هي اعتقاداتك أنت وحدك أما أنا لدي مشروع أديره قد يغير البشرية إلى الأبد.. لن أعود خطوة واحدة إلى الوراء لأن أحمقًا مثلك يعاني من أزمة ضمير أو أخلاق.

ران الصمت عليهما لحظة بعد عبارة هاشم الأخيرة وتطلع الرجلان إلى بعضهما.. حاول نجيب أن ينتقي كلماته بعناية قبل أن يقول في بطء:

- أعتذر إذا كنت قد تجاوزت حدودي.

لوح هاشم بيده قائلًا:

- أخبرني فقط ماذا تريد الآن؟

التقط نجيب نفسًا عميقًا من الهواء قبل أن يقول:

- فريق المحققين توصل إلى نتائج ممتازة بخصوص الانفجار.

قال هاشم وهو يتراجع في مقعده:

- الآن هناك خبر جيد في هذا اليوم.

ثم عاد يميل نحو نجيب واستطرد:

- أنا أستمع..

شد نجيب قامته وهو يقول:

- اكتشفنا أن الدكتور (سامي) هو من قام بتفجير القنبلة في المعمل.. الغريب أنه أحد أكثر رجالنا إخلاصًا للمنظمة.. دكتور (سامي) رجل مثالي ويملك تقريبًا كل شيء.. زوجة جميلة.. أبناء متفوقون.. مستوى مادي جيد جدًا.. كما أنه كان متحمسًا جدًا للمشروع.

داعب هاشم لحيته القصيرة وسأله بكل اهتمام:

- إذن لماذا قام بذلك؟

- التفسير الوحيد هو أن هناك ضغوط من نوعٍ ما قد تمت عليه.. لكن حتى الآن لا نعرف طبيعة تلك الضغوط.

- هذا لا يفسر لماذا ظل في مكان التفجير.. لماذا انتحر؟

قال نجيب في سرعة:

- هذا يقودنا إلى أكثر نقطه مثيرة..

ثم أخرج بعض الأوراق والصور وقدمها إلى هاشم الذي تناولها في

لهفة:

- كاميرات المراقبة رصدت في الليلة السابقة للتفجير، لقاءً غير متوقع بين الدكتور (سامي) وشخص مجهول..

- شخص مجهول!

تألقت عين نجيب:

- بالبحث في الأرشيف الدولي للمنظمة استطعنا معرفة كل شيء عنه.

بدت حيرة شديدة على وجه هاشم وهو يقول:

- وما هي علاقة الأرشيف بشخص عادي؟! الأرشيف يضم فقط العينات والكيانات الخارقة التي تم رصدها من خلال عملاءنا المنتشرون حول العالم.

وصمت للحظة مفكرًا قبل يكمل في قلق:

- هل تقصد ان الشخص المجهول هو...

هز نجيب رأسه:

- نعم.. هو (إفريقيا).. أحد أكثر الكيانات خطورة على كوكب الأرض

***

الفصل الرابع

إفريقيا

قبل أيام من الانفجار..

داخل ملهى ليلى ممتلئ بالضجيج والموسيقى الصاخبة جلس (إفريقيا) صامتًا دون حراك يدقق النظر في حدة. كان كتلة من السواد التام والشعر المجعد والملامح غير المتناسقة.. جلد على عظم.. العرق يغمر وجهه وعنقه رغم برودة المكان. تناول رشفة صغيرة من كأس صغير يمسكه في يده اليسرى وحدق في زجاجات الخمر الملونة التي تراصت وراء البارمان الذي يشبه رجلًا أرستقراطيًا من القرن الماضي. فكر إفريقيا في سره، كيف لرجل مثله أن يحتفظ بأناقته في مكان كهذا؟!

اقترب منه البارمان:

- هل ترغب في كأس آخر؟

هز إفريقيا رأسه إيجابًا، لا يتكلم إطلاقًا، عاهد نفسه على الصوم عن الكلام منذ سنين طويلة، حانت منه التفاتة جانبية فشاهد انعكاس صورته على سطح مرآة كبيرة، منح نفسه بضع لحظات يحدق في نفسه كأنما التقى مع عدو قديم. انعكاس صورته في المرآة مختلف تمامًا عنه.. الانعكاس بشرته بيضاء كالشمع والوجه سمين.. داخلة شخصيتان متصارعتان بينهما حرب وقتال، كر وفر.. بدأ يتحدث مع نفسه ويرد عليها:

- ماذا هناك؟

- لا شيء.. إنه أنا.. لا شيء سواي.

- أنت مضطرب.. وحيدا!

فجأة انتفض في مكانه بسبب صوت بشبه قرع الطبول الإفريقية.. صرخ الانعكاس في غضب:

- إنه صوت الفرقة الموسيقية أيها اللعين لا تجزع.

- أنت مجنون..

- علينا أن نخرج من هنا.

- توقف عن الحديث..

- أنا.. أنا صامت.. أنت من تتحدث!

ضرب سطح البار:

- أريد بعض الهدوء.. ما كان يجب أن أستمع لك من البداية!

- هذا الهدوء الذي تريده هو الذي سيخمد أنفاسك. توقف عن الصراخ.

- اصمت أنت..

في تلك اللحظة وضع له البارمان الكأس الثانية أمامه ونظر إليه في شك وخوف وقال:

- أنت بخير؟

لهث إفريقيا وهز رأسه بالنفي وهو يشيح بنظره عن المرآة.. عاد البارمان يقول:

- ربما فقط أنت غير معتاد على الشراب.

ومد يده يريد أخذ الكأس لكن إفريقيا أمسك يده في قوة قبل أن تصل وهز رأسه محذرًا إياه بمعنى: لا تفعل.

ابتلع البارمان ريقه بصعوبة وسحب يده من قبضته بصعوبة أكبر وعاد يكمل عمله في الاتجاه الآخر من البار. تناول إفريقيا الكأس ومضى يشربه في صمت، ومن بعيد شاهد امرأة تجلس بمفردها شفتاها تتحركان بنعومة.. لا يعرف إذا ما كانت تغني أغنية أم تتحدث مع نفسها. كانت جميلة كأنها منحوتة بريشة فنان ماهر لعوب.. رمق انعكاس صورته على سطح البار وبدأ يتحدث إليها: كالعادة سيدة مجهولة لا تعرف عنها شيئًا.

- تبدو كأنها من عالم آخر.. إنها لنا.

لمعت عيناه:

- أريد فقط أن أمد يدي وأقبلها.. ثغري وثغرها يلتقيان في قبلة طويلة.

- تريد أن تحتضنها وتلتهمها..

- ربما كانت تنتظر شخصًا ما!

عقد حاجبيه:

- لا هي وحيدة.. شاهد جيدًا.. أعتقد أنها تحاول جذب الانتباه.. تركت الفستان ينحسر قليلًا عن ساقيها بطريقة بدت كأنها عفوية.. هي تعلم أن الرجال يعشقون تلك الحركة.

- أنت تعلم أنني لست حاد النظر مثلك.

- تشعر أنها لا تنتمي إلى هنا.. ربما مرت بتجربة عاطفية فاشلة!

ابتسم:

- هذه فرصتنا إذن!

- تفوح منها رائحتان.. رائحة عطر صناعي تتزين به، ورائحة أخرى تنبعث من نهدها.

تشمم الهواء:

- نعم.. رائحتها نفاذة عنيفة.

- رقيقة الحال.. الفستان الذي ترتديه ليس ملكها.. إنه ضيق قليلًا.

ضحك:

- لمَ لا تقول أنها قد زادت بعض الوزن!

هز رأسه:

- لا.. تبدو غير مستريحة فيه.. هذه أول مرة ترتديه. تستخدم يدها اليمنى والوشاح ملفوف عكس اتجاه يدها.. صاحبة الفستان هي من قامت بذلك.. ربما تكون صديقة قديمة.

- هما فتاتان إذن.. هذا مناسب لنا.

- لا أيها الأحمق.. فتاة واحدة.

- وماذا عني؟

- أنت غير موجود.

- أيها اللعين.. توقف عن الصراخ!

- سوف أذهب إليها.

- لن تلتفت إلى رجل زنجي مثلك.. يوجد بيت عاهرات قريب من هنا.. يمكننا أن نحصل على عاهرتين.

- العاهرة معروف ثمنها، تدفع مبلغًا من المال وتحصل منها على كل شيء، لكن هنا الأمر يختلف، هذه امرأة غير عادية.

ثم تجرع ما تبقى في الكأس دفعة واحدة فاحتقن وجهه وحدث نفسه مرة أخرى مستطردًا:

- كما أنك غير حقيقي وأنا أحتاج إلى امرأة واحدة فقط.

اتجه مباشرة نحو المرأة ودون أن يسألها جذب مقعدًا وجلس في مواجهتها. التفتت له وبدت الدهشة على وجهها وهمت تعترض.. التقت عيناه بعينيها.. تجمدت الكلمات داخل رأسها وتخشب جسدها كأنها لقطة من فيلم ثابت.. بعد صمت طويل سمعت صوته يرن داخل عقلها:

- ما اسمك؟

صاحت في جزع:

- ماذا يحدث؟!

اكتشفت أن الكلمات لم تخرج من حلقها.. ابتسم ورن صوته من جديد داخل عقلها:

- بهدوء.. أنا أتحكم بك.

- ماذا تريد؟

- اسمك؟

- فاتن..

- فاتن.. أتريدين أن تأتي معي؟

اتسعت عيناها:

- لا.. لا.. لا..

ضغط على نواجذه فشعرت بتشويش هائل في عقلها وبدأت الكلمات تخرج منها دون إرادتها:

- نعم أريد.

نظر إلى انعكاس صورته على زجاجة ماء وتحدث مع نفسه:

- أخبرتك أنها ستوافق.

أشارت له صورته التي على الزجاجة بعلامة النصر. ابتسم وعاد يلتفت إلى فاتن:

- لا تقلقي.. لن أسمح له بلمسك.

رن صوت شخصيته الأخرى في رأسه:

- أيها اللعين.. لن تظفر بها بمفردك!

ابتسم إلى فاتن:

- مجرد خيال مريض.. سوف أتخلص منه يومًا ما.

ثم مد يده نحو فاتن التي فوجئت بنفسها تتحرك رغمًا عن إرادتها. أحاط خصرها بذراعه وسار مترنحًا.. فجأة اعترض طريقة رجلان وقال أحدهما في دهشة:

- فاتن.. إلى أين أنتِ ذاهبة؟

أرادت أن تنطق، لم تستطع، بينما أمسك الرجل كتف إفريقيا بقوة:

- ماذا فعلت لها؟

نظر إفريقيا إلى كرة بلورية في ركن المكان تصدر ألوانًا متنوعة وبداخلها ظهر انعكاس صورته البيضاء يصرخ فيه:

- أيها الأحمق أخبرتك أنها ليست بمفردها!

رمق إفريقيا يد الرجل على كم بدلته ورن صوته بهدوء:

- قاتل صديقك.

ودون تمهيد كسر الرجل الثاني زجاجة فوق رأس صديقه الذي ترنح للحظة وغزا الارتباك وجهه ثم مال جانبًا وانهار على الأرض

قبل أن يتمالك نفسه ويشتبك معه في قتال شرس بلا رحمة. فجأة، سادت حالة من الهرج والمرج والصراخ. الجميع اندفعوا يحاولون الخروج من الباب الضيق. قتال وصدام ودهس وضرب.. فوضي قاتلة.. لكن إفريقيا استدار وسط الفوضى ولأول مرة شيء يجذب انتباهه بمثل تلك الطريقة.. ترك يد فاتن واقترب من شاشة التلفاز التي تعرض خبرًا حصريًا عن منظمة غامضة تقوم بمحاولة استنساخ أحد كهنة الرب القديمة. اتسعت عين إفريقيا ونظر إلى انعكاس صورته الغاضبة على الشاشة:

- النفوس الكافرة!

- يريدون أن يعبثوا مع الخالق..

- اقتلهم جميعًا.

- غفران الرب مضمون.

وفيما كان يشق طريقه إلى الخارج بدأ وميض عينيه الأحمر كأنه نذير شر وموت.

***

الفصل الخامس

آدم: البداية

قبل الميلاد..

ارتمى آدم على الأرض وهو يطل بعينيه على الصحراء الهائلة الممتدة التي تحيط به من جميع الجهات. منذ أعوام قليلة بدأ دعوته، لكنها أثارت غضب الغوغاء فقتلوا كل أتباعه وتم التنكيل بهم على نحوٍ قاسٍ وأحرقوا منازلهم، وكادوا أن يقتلوه لولا أن هرب في اللحظات الأخيرة. لم يجد أمامه سبيلًا إلا السير وسط الجبال ووسط ممرات وعرة ضيقة، والابتعاد عن طرق السفر المعتادة هربًا عن أعين قطاع الطرق وصائدي الجوائز، حتى وجد نفسه تائهًا، وأحس بوحشةٍ لم يصادف مثلها من قبل، فاضطر للاختباء داخل أحضان الجبل.

عاد يحدق من خلف الصخرة الضخمة التي يختبئ وراءها على الغوغاء الذين يتحركون من بعيد جدًا كجيش من النمل فوق رمال الصحراء. كانت سيوفهم تومض من بعيد تحت أشعة الشمس الحارقة وهم يبحثون عنه في إصرار رهيب.. لا ينوون العودة إلا بعد الظفر برأسه.

أخرج حصاه من جيب رداءه وراح يمصها محاولًا أن ينسى شدة عطشه، حينها شاهد حصانًا قادمًا نحوه وفوقه رجل ملثم لا يظهر منه غير ندبة كبيرة فوق جبينه. رفع الرجل اللثام عن وجهه وهو يتجه إلى آدم بثبات وسرعة قائلًا بخشونة:

- أخيرًا التقينا يا آدم!

تفرس آدم في ملامحه فعرفه.. كان يدعى (أبو جندل).. أحد أكثر أتباعه إخلاصًا.. قال آدم بتوجس:

- لما جئت؟!

دار أبو جندل بفرسه حول آدم دورة كاملة وهو يقول:

- جئت طلبًا لدم أولادي.

ثبت آدم نظره عليه:

- ممن؟!

نزل أبو جندل من فوق الحصان وأغمد حربته في الأرض ثم قال بنبرة مغموسة بالتوعد والحقد:

- منك.. جئت أقتلك.

- لكن من قتل أولادك هم الغوغاء!

هتف أبو جندل بمرارة:

- أولادي قتلوا بسببك.. لو لم أستمع لك لظلوا أحياءً.. أنت من قتلهم.

- إن الرب...

صاح أبو جندل في حرقة مقاطعًا إياه:

- خذلني إلهك..

قال آدم بحزم:

- الرب يختبر إيمان التابعين.

صرخ أبو جندل بصوت جهوري:

- ويحك يا آدم! أما زلت تعتقد أن إلهك يستطيع أن ينصرنا ويقاتل معنا؟ لماذا لم يستجب لنا؟ لماذا لم يسمع صرخات أطفالي؟ هل إلهك أصم؟!

لم يملك آدم نفسه من الصراخ والغضب:

- لا تكفر يا أبو جندل!

وجد أبو جندل نفسه ينطلق ضاحكًا وانتزع سيفه من غمده:

- بل أنت الكافر..

ثم اختلجت الندبة التي فوق جبينه وهو يضيف قائلًا:

- سوف أنتزع قلبك من صدرك وأمضغه بأسناني.

- أنا حزين من أجلك.. سوف أدعو لك.

زاد غضب أبو جندل وعلت نقمته وطوح سيفة نحو عنق آدم:

- مت إذن..

وقبل أن يطيح سيف أبو جندل برأس آدم توقف في الهواء واصطدام بنصل سيف آخر، فتراجع للوراء وقد ظهر أمامه رجل غريب يقول:

- لسانك مزعج أكثر من سيفك يا هذا..

صرخ أبو جندل:

- يا ابن الخبيثة!

ثم انتزع حربته وأطلقها في اتجاه ترقوة الرجل الغريب.

***

تحرك الرجل الغريب بسرعة وتفادى حربة أبو جندل بمهارة وضربه بعرض سيفه من فوق ساعده، ففصل ذراعه عن جسده وانبثقت نافورة دم غطت وجه وصدر أبو جندل الذي صرخ في ألم وحاول أن يتراجع، لكن في لحظتها دار الرجل الغريب في رشاقة وحرك سيفه بحركة خاطفة مدروسة. تدحرج أبو جندل بسرعة ورفع ذراعه المقطوعة من فوق الأرض، وصد بها ضربة السيف وحاول أن يدفع عنه الرجل الغريب بعزم، إلا أن حركته لم تكن كافية فأصاب السيف صدره وشق قلبه. ترنح أبو جندل إلى الأمام ثم انهار على ركبتيه وبدا وجهه مشوشًا يتنازعه الألم وعدم التصديق ثم نظر إلى آدم وتدفق الدم من زاويتي فمه وهو يقول متهكمًا:

- وتقول أنك تقي!

وضحك في ألم وهو يلفظ كلماته الأخيرة:

- يا للمهزلة!

وسقط على وجهه ميتًا غارقًا في دمه تحت أقدام الرجل الغريب.. رجل متين البنيان، أشعث الشعر، أمرد الوجه، إحدى عينيه ميتة بها

بياض مائع. حدق آدم في وجه الرجل متمعنًا وسأله وهو يقترب منه:

- من أنت؟!

وضع الرجل سيفه جانبًا بلا هزة ولا رجفة ثم مسح وجهه وعرق جبينه وقال:

- حزقيال.. اسمي حزقيال..

- وأنا...

قاطعه حزقيال:

- أعلم.. أنت آدم.. أو كما يطلق عليك أتباعك (كاهن الرب).

لاحظ آدم نبرة السخرية في كلامه فقال:

- الرب كان سينقذني.

هز حزقيال رأسه متهكمًا:

- نعم، بالتأكيد كان سيفعل.

حدق آدم بنظرة غاضبة قبل أن يسأله بفضول:

- تعرف أن هناك مكافأة كبيرة على رأسي.. لماذا لم تسلمني للغوغاء وتقبض الثمن؟

غمغم حزقيال:

- يمكن القول أن أموالهم لا تعجبني.

ثم صمت قليلًا قبل أن يضيف ضاحكًا:

- كما أنني مطارد منهم أيضًا.

- ماذا فعلت؟

- لا شيء يستوجب الذكر.

وضحك مجددًا:

- أنت تعلم طبيعة هؤلاء الغوغاء.

اقترب منه آدم:

- دعني أكافئك إذن..

وضع يده فوق عين حزقيال الميتة وحين أزاحها كانت العين سليمة تمامًا وقد عادت لها قدرتها على الإبصار.. قال آدم مبتسمًا:

- هنيئًا لك..

كاد حزقيال أن يصرخ من فرط الفرح، لكن آدم كان أسرع منه ووضع يده على فمه قائلًا:

- حسنًا اهدأ..

ثم أشار نحو عصبة من الرجال تتجه نحوهم، وخفض صوته بقدر ما يستطيع، وأضاف:

- إنهم يقتربون منا..

غمغم حزقيال في قلق وهو يشاهد الغوغاء وقد أحاطوا بهم فيما

يشبه السوار بالمعصم ودقت أصوات حوافر خيولهم رأسه بمطارق من حديد:

- عددهم مائة رجل على الأقل.. ماذا سنفعل؟

لف آدم بنظراته فيهم وقال:

- الرب معنا..

التفت له حزقيال وقال بتوتر وهو يشاهدهم يقتربون أكثر:

- آدم.. أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لنشاهد جنود إلهك!

- الرب معنا..

كاد حزقيال أن يضربه بسيفه لكي ينجو هو، لكنه توقف، وامتلأت رئتاه بالدهشة حين رأى الغوغاء يتراجعون ويستدير بعضهم إلى بعض في جزع، وفجأة تفرق الفرسان والرجال بالتزامن مع أصوات صرخات مرعبة تكاد تقتلع القلوب، قبل أن تندفع نحوهم أشباح سوداء كثيرة، وذئاب سوداء متوحشة ظهرت كأنها خرجت من تحت الأرض أو من العدم، وبدأت تنقض عليهم وتفترسهم وتمزقهم تمزيقًا شديدًا.

الفصل السادس

مزيد من العبث

الوقت الحالي..

آدم نائم في فراشه يتنفس بحشرجة وفمه يتحرك وتخرج منه كلمات غير واضحة وقد تشنجت أطرافه وتصلبت كأعواد من الحديد كأنما يعاني فزعًا هائلًا لا حد له. فجأة انتفض مستيقظًا وحدق فيما حوله ذاهلًا.. الغرفة.. الجدران.. النوافذ المغلقة.. الجثث.. جثث كثيرة متناثرة على الأرض. نهض من مكانه وخرج من الغرفة وهو يترنح ويستند على الجدران التي كانت تتمايل به كأنه داخل قارب وسط بحر وأمواج.. الهواء ساخن.. الأضواء ترتعش.. الدماء في كل مكان. انبعثت بعض الذكريات في رأسه للحظة واحدة ثم هربت منه:

- ماذا حدث؟!

بخطوات واسعة اتجه إلى غرفة نوم (غادة):

- أمي.. أين أنتِ؟

كان الظلام يغلف كل ما أمام الغرفة، لكن آدم لم يتردد وتقدم. اخترقت رائحة شنيعة أنفه بمجرد أن حرك الباب ليشاهد أكثر شيء مفزع.. كان كل شيء محطمًا في الغرفة، وأمامه كانت جثة (غادة) تسبح في بركة من الدماء، وقد ألقى أحدهم رأسها في ركن الغرفة، وبجوار الرأس المقطوع بلا رحمة يقف شبح داكن على هيئة غادة ينظر إلى آدم في صمت.

رغمًا عنه تراجع آدم إلى الوراء بخطوات خائفة وخرج صوته مبحوحًا:

- يا إلهي!

لكن شبح (غادة) لم يعره أي اهتمام وتحرك من جوار الجثة وخرج من الغرفة. فجأة سمع آدم صوت طرق يأتي عبر الجدران.. صوت مستمر ثابت لا يقترب ولا يبتعد كأنه يصدر من داخل الجدران نفسها. تبدل المشهد ووجد آدم نفسه أمام خيمة تقبع وسط الظلام الدامس، وشعر برأسه يدور وبعجزه عن الوقوف على قدميه. صرخ وهو يمسك رأسه ويسقط على الأرض:

- من يعبث في عقلي؟

مرت دقائق من الصمت الثقيل قبل أن يقتحم صوت مؤلم رأسه:

- أنا..

انتفض جسد آدم وهب واقفًا وهو يصرخ بفزع:

- من أنت؟!

بدا الصوت كأنما يأتي من أعماق سحيقة حين قال:

- اسمي (إفريقيا) وقد أتيت من أجلك.

فجأة تكاثف الظلام حول آدم بصورة غير طبيعية قبل أن يجذب جسده شيئًا ما إلى داخل الخيمة ويلقيه على الأرض بعنف شديد. جال آدم ببصره في الداخل.. كانت الخيمة شبه فارغة.. أركانها

ممزقة.. طاولة خشبية مكسورة مغطاة بشبكة عنكبوت.. قارورة ماء مهشمة.. أطباق طعام مقلوبة وقد غطى الطعام عفنٌ أخضر وأسود. في المنتصف توجد أحجار مرصوصة على شكل دائرة وبداخلها رماد بارد من بقايا نار مشتعلة.

نهض آدم عن الأرض:

- أين أنا؟!

سمع الصوت يتردد من كل الأرجاء:

- في مكان موتك.

تتالت سلسلة من المشاهد والأحداث الصامتة في ذهن آدم كما لو أنه يستعرض تسلسل وذكريات الماضي.. المدينة العظيمة.. الحرب والقتال.. التابعين الذين يحيطون به.. عائنة وهي تضع له السم.. ثم دماء وظلام.

صرخ آدم وهو يدور حول نفسه:

- أظهر نفسك أيها الشيطان!

- ها أنا قادم إليك..

ثم تحركت جوانب الخيمة ومن بينها ظهر رجل ميت يتحرك بحركة ميكانيكية مخيفة.. وجهه ممزق.. عيناه بشعتان.. خيوط دم تسيل من فتحتي الأنف والأذنين.. يبتسم ابتسامة بلا معنى. قال بنفس نبرة الصوت الخشنة:

- مرحبًا!

رفع آدم كف يده في وجه الميت وهتف:

- توقف..

تجمد الرجل الميت في نفس اللحظة وبدا أن (إفريقيا) الذي يسيطر عليه قد أصيب بالدهشة حين شعر أنه فقد السيطرة.. سأله آدم:

- ماذا تريد مني؟

ارتعشت أطراف الميت كأنما يريد أن يتخلص من سيطرة آدم وقال بصوت متحشرج:

- أن تعود إلى الموت.

لاحظ آدم أن هناك شيء ما يتحرك أسفل جلد الميت كأنها ديدان عملاقة تغوص في الحلم وتريد أن تمزق الجلد وتخرج.. قال:

- لا أفهم شيئًا!

قال إفريقيا على لسان الرجل الميت:

- لا تحتاج إلى أن تفهم.. فقط عد إلى قبرك.

ثم بدأ جسد الميت ينسحق وعظامه تتحطم بطريقة وحشية وهو يطلق صرخات هائلة مريعة جعلت آدم يضع يده على أذنه ليحميها وأغمض عينه من الألم. حين فتح آدم عينيه صرخ وتبدل المشهد من حوله.. وجد نفسه ما يزال على السرير في غرفته وقد غمر

العرق وجهه. لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا.. الهواء بارد.. النافذة مفتوحة.. الستائر البيضاء تتمايل مع تيار الهواء بليونة.. ولا يوجد أي شيء غير طبيعي.

اقتحمت غادة الغرفة مذعورة بعد أن استيقظت على صوت صراخه:

- آدم.. أنت بخير؟

نظر إليها كأنه عائد من عالم آخر وهتف:

- كابوس.. كابوس بشع!

جلست بجانبه واحتضنته:

- اطمئن..

كان يشعر أنه في خطر محدق كأن حوائط الحجرة سوف تنطبق عليه:

- أنا خائف..

حدقت في وجهه:

- أنظر حولك.. أنت في المنزل.. أنت في أمان.

قال وفي صوته رجفة:

- لا الموضوع يتعلق بشيء آخر.. لا أعرف ما هو لكن أشعر به.. إنه يحيط بي ويحاول أن يحاصرني.. يحاصرني وأنا نائم.. وأنا مستيقظ.. يحاصرني في كل وقت وأي مكان.

- آدم، توقف عن هذا الكلام.. أنت تتخيل.. حاول أن تتجاهل كل تلك الخيالات.

فجأة، انهمرت الدموع من عين آدم. غادة تتذكر أن هذه هي أول مرة تراه يبكي. لقد اعتقدت أنه لا يبكي مثل الأطفال.. انحنت نحوه ومسحت دموعه الساخنة بكفها:

- لمَ تبكي الآن؟ الرجال لا يبكون!

صرخ:

- لا أريد أن أموت.. أريد أن أعيش.. أنا أريد أن أعيش..

هتفت وهي تنهض:

- حبيبي أنت تعاني من تأثير صدمة عصبية.. سوف أذهب وأحضر لك طبيبًا حالًا.

استوقفها آدم:

- أرجوك.. انتظري.. أنا بخير.

كادت غادة تنطق بشيء لكنها تراجعت قليلًا إلى الوراء ونظرت إلى آدم وكأنها تراه للمرة الأولى، واشتمت لأول مرة رائحة غريبة واتسعت عيناها، ثم هتفت في صدمة:

- آدم أنت تبدو مختلفًا!

نظر إليها في استغراب وسأل في ارتياب:

- ماذا تقصدين؟!

انتفض جسدها بعنف وفي أعمق أعماق عقلها أطلقت صرخة وهي تقول:

- أنت كبرت في السن!

***

منزل إفريقيا..

من بعيد، بدا المنزل مهجورًا لا يسكنه أحد.. المنزل يسوده صمتٌ مطبق، مكون من غرفتين، الغرفة الأولى مليئة بالغبار، بها أريكة متهالكة تواجه تلفازًا مكسور الشاشة، فوق التلفاز منفضة مليئة بأعقاب سجائر وكيس شفاف مليء بمسحوق أبيض. الغرفة الثانية خالية تمامًا من أي أثاث.. أرضية مصنوعة من الرخام البارد، رائحة بغيضة كأنها لم تنظف منذ مدة، في منتصف الغرفة دائرة مرسومة بالطباشير.. داخل الدائرة كان إفريقيا ممددًا على ظهره، لا يتحرك، لا يرمش، لا يتنفس، عارٍ تمامًا، الذراعان والقدمان متباعدتان، عيناه متسعتان لامعتان مثل مرآة فولاذية، فوق كتفه الأيسر وشمٌ ضخم عبارة عن كتابة باللغة الهيراطيقية تتخذ شكل أفعى مجلجلة لها رأس ضخم وفم مفتوح يبرز منه نابين كبيرين تتدلى منه قطرات من السم. كل شيء صامت ثابت.. بعد مدة تسللت ذبابة موت زرقاء من ثقب في النافذة، ثم حلقت في الهواء حتى سقف الغرفة ودارت عدة دورات وهي تصدر أزيزًا مسموعًا، قبل أن تهبط وتقف على حافة حاجب إفريقيا..

تحركت الذبابة قليلًا ووضعت أرجلها المشعرة داخل حدقة عين إفريقيا اليمنى ونخرت قليلًا في السائل الشفاف. مرت ثوانٍ وبدا أن الذبابة قد التصقت في مكانها ثم ذابت كقرص من الشمع وامتصتها عين إفريقيا..

يمضي الوقت ولا جديد يحدث.. إفريقيا يرقد ساكنًا لا يصدر عنه أي صوت.. وهناك.. هناك في منطقة ما بين عالم الأحياء والأموات كان يوجد إفريقيا. يقف وسط ما يشبه صحراء قاحلة والرياح تعوي من حوله بشدة.. السماء حمراء.. الأرض ممتلئة بالشقوق.

مرت ساعة كاملة منذ أن تواصل للمرة الأولى مع آدم واستطاع أن يقوده إلى هنا لكنه فشل في القضاء عليه. السؤال هنا كيف تمكن آدم من الإفلات من التحكم العقلي؟ عادةً ما يكون إفريقيا قادر على السيطرة على أي إنسان.. إلا أن آدم كان يختلف.. صحيح أنه كان ضعيفًا وهشًا جدًا لكن قوة غامضة كانت تحميه، ولأول مرة يشعر إفريقيا أنه ليس السيد الوحيد في هذا العالم وأن هناك قوة أخرى ظلامية قادرة على العبث واللعب معه. الآن هناك ضرر بالغ في تلك المنطقة.. هناك ظلمة ووحشة أكثر من اللازم.

أغمض إفريقيا عينيه مثلما كان يغمضهما في أغلب الأحيان حتى يعود إلى العالم الحقيقي، إلا أنه ما زال موجودًا.. شعر بقشعريرة تتسلق ذراعه وظهره.. يبدو مقيدًا بقيود خفية ولم تكن هناك أي طريقة أخرى للخروج.. أدرك أن روحه ربما تظل حبيسه هنا إلى الأبد في عالم البرزخ بينما في العالم الحقيقي سوف ينهار جسده بعد مرور بضعة أيام من عدم الاستجابة. سوف تتسلل الحشرات

والزواحف إلى المنزل وتزحف فوق جثته.. الأذن، العينان، الفم، كل ذلك سوف يمتلئ بالديدان التي سوف تجد فيه مرتعًا لا ينضب.. ربما بعد سنوات سوف يعثر شخصٌ ما على ما تبقى منه.. لن تكتشف الشرطة هويته.. سوف يظل مجهولًا.

في عالم البرزخ صرخ إفريقيا صرخة ألم رهيبة وببطء بدأ يخرج جسد آخر من جسده وكأنما يتم انتزاعه نزعًا.. تدحرج على الأرض وخرجت منه رأس أخرى ثم ذراعين وساقين.. شهق في ألم وجحظت عيناه بشدة.. وفي لحظة انفصل الجسد الآخر عنه.. شخصيته الأخرى تجسدت له.

نهض إفريقيا ونظر إلى نفسه الأخرى:

- أيها الاحمق.. كيف ستخرج؟

- لن يستمر هذا طويلًا.

ضحك كأنه يسمع نكتة:

- أنت ميت الآن.

- لا تعبث معي.. سألتهمك حيًا!

- سوف تستيقظ ونصف جمجمتك مكسور.

هز رأسه:

- تقول هذا وكأنه شيء سيئ!

طوح بيده:

- أنا أريد الحصول على شراب بارد.. إذا لم أشرب سأصاب بالجنون!

- هل ستخرجنا من هنا أم ستظل تتحدث؟

- أخيرًا أنت بدأت تفكر..

- وأنت تدرك جيدًا انني لا يمكنني القيام بذلك بمفردي!

ابتسم ابتسامة سريعة:

- سنفعلها سويًا إذن..

- نعم.. سويًا.

- فقط تكلم بالكلمات السحرية.

عقد حاجبيه قليلًا:

- لا..

- كما تشاء.

صرخ:

- لا تتصرف بطريقة طفولية!

- أريد الكلمات السحرية أولًا..

ارتسم تعبير صبر على وجهه:

- من فضلك..

ضحك:

- حسنًا هيا بنا..

وأغمض كلتا عينيه وحل ظلام حالك.

في نفس اللحظة وداخل منزل إفريقيا، كان الوقت ينساب ببطء.. تنقضي دقيقة، اثنتان ثلاث، وما زال إفريقيا في منتصف الدائرة في نفس الوضعية الجامدة وبدا أنه لن يستيقظ مطلقًا. فجأة فتح كلتا عينيه بقوة وهو يشهق.. هذه المرة خرج من عالم البرزخ وعاد إلى العالم الحقيقي. أصدر نوعًا من الزمجرة المنخفضة ثم اعتدل جالسًا في مكانه وهو يلهث محدثًا نفسه:

- كيف يمكنني أن أشكرك؟

- هذا هو ما أفعله دائمًا.. أنا أنقذ حياتك أيها الأحمق,

رفع يديه:

- شكرًا..

- يومًا ما سوف أتركك تموت، وأعدك عندها أنني سأزور مقبرتك وأضع فوقها الورود.

- لن يحدث.. سوف أقتلك أولًا.

- يا للهول، مزاجك سيئ اليوم، أنت لا تقبل المزاح.

- أنت مجنون..

- لا أنت المجنون.

***

إحدى العيادات الخاصة..

كانت عقارب الساعة تقترب من الخامسة مساءً حين ارتسمت ابتسامة متوترة على وجه الدكتور (صفوت) أستاذ جراحة المخ والأعصاب وهو يستمع إلى غادة قبل أن يهز رأسه قائلًا:

- الواقع أنني قضيت نصف عمري وربما أكثر في مجال الطب لكن حالة آدم تتعارض مع كل قوانين الطب!

قالت غادة:

- أعلم هذا..

ثم نظرت إلى آدم الذي يجلس في سكون على مقعد بعيد بعض الشيء في نهاية غرفة الكشف وقد أصبح أكبر وأطول من السابق واستطردت:

- لا بد من وجود تفسير أو على الأقل وجود حالة مشابهة له في مكان ما في العالم!

أشار الدكتور صفوت إلى نتائج التحاليل وصور الأشعة الخاصة بآدم قائلًا:

- أنا لا أرى أي شيء غريب.. جميع الاختبارات تشير إلى أنه طبيعي مائة في المائة ويفترض أن...

قاطعته:

- لسنا أمام ما يفترض يا دكتور ولكن نحن أمام ما حدث بالفعل.. عمر آدم تضاعف في يوم واحد!

تراجع في مقعده:

- ما تقولينه غير قابل للتصديق..

- يمكنني أن أؤكد لك ومن دون أدنى شك أن هذا ما حدث..

هز رأسه قائلًا في حزم:

- وأنا أستطيع أن أجزم أن هذا لا يمكن حدوثه.

شملهما الصمت بضع لحظات قبل أن تسأله غادة:

- وماذا عن نوبات الفزع والخوف التي يعاني منها؟!

- الخوف جزء من طبيعتنا.. كل مخلوق لدية قدر معين من المخاوف.

تدخل آدم في الحوار:

- ليس هذا النوع من الخوف.

التفت دكتور صفوت إلى آدم يتفرس ملامحه وكأنما أراد أن يستشف مدى صدقه وجديته قبل أن يغمغم:

- حسنًا، دعني أجاريك حتى النهاية.. أنت تقول أنك تعاني من نوبات صداع يعقبها رؤية أشباح.

- بلى..

- منذ متى وأنت تعاني من هذه النوبات؟

رد في اقتضاب:

- شهر تقريبًا.

- متى كانت آخر نوبة؟

تمتم آدم:

- كان ذلك منذ عشر دقائق تقريبًا.

اتسعت عين دكتور صفوت في دهشة:

- وأنت تجلس معنا هنا؟!

هز آدم رأسه:

- نعم.. لدقيقة واحدة لم أكن موجودًا معكم.. لقد رأيت نفسي في طريق طويل لم أسر فيه من قبل.. كان الضباب يحيط بي من كل جانب ثم ظهر ذلك الشخص من وسط الضباب.. شخص شديد النحافة والشحوب.. بدا لي للحظة أنه يعاني من وجود شخصيتين داخله.. ولكن العجيب أنني لم أشعر بالخوف لرؤيته بل على العكس تمامًا أردت أن أتحدث معه.. كان لدي فضول غير عادي.

عقد الدكتور صفوت حاجبيه في شدة وهو يقول:

- هل تحدثت معه؟

هتف آدم في انفعال:

- اسمه إفريقيا.. قال لي أن الخلاص يكمن في يده، وبعدها انقشع الضباب وشاهدت العالم من جديد.. القارات.. البحار.. المدن.. البشر.. كان كل شيء في حالة دمار.. الدخان يغطي السماء ويحجب ضوء الشمس.. خراب ودمار ونار في كل شبر في كل الأرض.. صراخ هائل ودماء متدفقة مثل الأنهار.

اقتربت منه غادة وربتت على كتفه في حنان وهي تقول:

- اهدأ يا آدم.

قال الدكتور صفوت:

- مجرد مخاوف بسيطة يجسدها عقلك الباطن على هيئة حلم أو مشهد.. صدقني كل شيء غير قابل للقياس أو الإدراك هو ببساطة شيء غير موجود.. نحن نعيش في عالم مادي محسوس لا مجال فيه للخرافات.

ردت غادة في حدة:

- ليست كلها خرافات.. كثيرًا ما تحمل لمحة من الحقيقة.

وأضاف آدم في حزم:

- والروح موجودة لكن لا يمكن قياسها.

لوح الدكتور صفوت بذراعيه:

- مسألة الأشباح وكل ما يقع ضمن نطاقها أشياء غير مقبولة بالنسبة لي.. هذا من قبيل الدجل والشعوذة.. لا أريد أن أقول أن كل

ما ذكرته يقع تحت بند الهلوسة المثالية ونموذج للفصام الشبه كامل.

في تلك اللحظة ظهر الغضب واضحًا على وجه غادة فنهضت وحملت حقيبتها وأشارت إلى آدم قائلة حدة:

- هيا بنا.. لن نبقى هنا دقيقة أخرى.

و قبل أن تصل إلى باب الخروج نادى عليها بسرعة:

- أستمحيك عذرًا!

استدارت نصف استدارة نحوه وقالت في عصبية:

- ماذا؟!

وجدته ينهض ويتحرك من وراء مكتبة ويقترب منها قائلًا:

- رغم غرابة ما تقولين لكن واجبي يحتم عليّ أن أنصحك.

لم تقل غادة شيئًا بينما تابع الدكتور صفوت:

- أظن أنه من الأفضل ألا يعلم أحد بشأن آدم.

ارتفع حاجبا غادة وقالت في حيرة:

- لماذا..؟

أجاب بسرعة:

- أنتِ لا ترغبين أن يصبح فأر تجارب في معامل الحكومة.. لن يلتفت أحد إلى أنه مجرد طفل صغير وسوف يتم معاملته بقسوة.

أدارت عينيها إليه وقالت في دهشة مستنكرة:

- لا أحد يمكنه فعل ذلك.

حملت نبرة صوته بعض الأسف وهو يقول:

- أخشى أنهم يستطيعون.

شعرت غادة بتقلص في معدتها:

- وماذا تقترح؟

أخرج هاتفه:

- دعيني فقط أبحث في الأمر مرة أخرى وأقوم بمراجعة بعض الأطباء في تخصصات أخرى وسوف أتواصل معكِ حين أصل إلى نتيجة.

وقام بتدوين رقم هاتفها وانتظر حتى انصرفت ثم عاد يجلس وراء مكتبة. مد يده وتناول صور أشعة جمجمة آدم وراح ويتمعن في ظلال الجمجمة بدقة، مال إلى الأمام وهذه المرة لاحظ أن عظام الجمجمة تبدو أرق قليلًا من الطبيعي.. غمغم مفكرًا:

- من يدري!

وبهدوء تناول الهاتف وضغط زر الاتصال وانتظر حتى سمع رد الطرف الآخر فقال وهو يبتسم:

- سيد (هاشم).. أعتقد أنني قد عثرت على ما تبحث عنه.

واتسعت ابتسامته الصفراء أكثر وأكثر.

***

الفصل السابع

جماجم رمادية

قبل الميلاد..

القمر يتدلى من السماء مثل جمجمة رمادية.. السكون يسود كل شيء.. لا شيء يتحرك وكأن الحياة قد جفت تمامًا.. ومن بعيد ظهر آدم وحزقيال وجوههم متقرحة ومحترقة يتحركان في بطء شديد فوق الرمال في الصحراء التي بدت مثل بحر ميت بلا أمواج. قال حزقيال في وهن:

- أتمنى أن نتمكن من الوصل إلى بابل قبل أن نلقى حتفنا في تلك الصحراء اللعينة.

هتف آدم في شيء من الثقة:

- لا تقلق.. سوف نكون بخير.

قال حزقيال وهو يوشك على الانهيار من شدة الجوع والعطش:

- كيف؟! لقد نفدت منا كل المؤن!

أمعن آدم النظر في وجه حزقيال قليلًا ثم سأله:

- كم تبلغ من العمر؟

أجاب حزقيال وهو يقطب جبينة:

- ثلاثين عامًا.

- تصغرني بخمس سنوات.

- وبالتالي..؟

ابتسم آدم في هدوء:

- وبالتالي لا شيء.

فجأة، سمعوا صوتًا مكتومًا كإفريقيا من بعيد. مزيج من الصراخ والطنين.. صاح حزقيال وهو يشير بيده نحو جبل هائل الحجم:

- هناك..

نظر آدم حيث أشار حزقيال وبقي للحظة جامدًا في مكانه، وهو يراقب ممرًا صخريًا يظهر من العدم أسفل الجبل كما لو كان يخرج من كتاب سحر، وهتف في دهشة كاملة:

- ما هذا؟!

غمغم حزقيال وهو غير مصدق:

- مستحيل!

وتقدم بضع خطوات نحو الممر وأضاف في انبهار:

- ممر الملك هيرلا.. اعتقدت أنه مجرد أسطورة!

ثم التفت إلى آدم:

- يقال أن ممر الملك هيرلا يصل بك إلى أي مكان.. يكفي فقط أن تفكر إلى أين تريد أن تذهب وتجد نفسك هناك.

ردد آدم في تعجب:

- ممر سحري!

- وله حكاية عجيبة.

حكى حزقيال أن قديمًا كان يعيش هنا ملك عظيم يدعى الملك (هيرلا).. ملك عادل وقوي جدًا.. وفي أحد الأيام وأثناء أحد رحلات صيده، اتخذ له مرقدًا مريحًا بين الأعشاب في غابة تقع على أطراف مملكته، وفجأة سمع جلبة بين الأشجار، فجذب إليه سيفه ونهض يبحث عن مصدر الصوت.

بعد بحث قصير فوجئ الملك بقزم غريب الهيئة يقف جوار شجرة توت كبيرة.. القزم له لحية دائرية بلون النحاس معلق بها حلقة معدنية، وجهه شاحب، يمتطي جديًا ضخمًا مصفف الصوف، ويضع فوق رأسه تاجًا من الذهب مرصع بجواهر غريبة.

بادر القزم كلامه بقوله أنه قد سمع عن هيبة وجلال وعظمه هيرلا.. وأنه هو أيضًا ملك مثله ويريد أن يبرم معه اتفاقًا أو عهدًا.. كان الاتفاق أنه سوف يحضر حفل زفاف الملك ومعه كنوز لم يرَها أحد من أهل الأرض وسوف يحتفل معه احتفالًا يليق بأعظم ملوك الأرض، لكن في المقابل طلب منه طلبًا واحدًا يتم تنفيذه بعد سنة فقط، مثلما قام هو وقومه بزيارته، على الملك هيرلا أن يرد الزيارة ويحتفل معه في ليلة زواجه.

وافق الملك على الاتفاق وبمجرد قبوله قدم له القزم بوقًا من البرونز مملوء بالخمر المعتق، فشربه الملك عن آخره ولدهشته

اختفى القزم وكأن الأرض قد ابتلعته. هز الملك رأسه لهذه الحادثة العجيبة ومضى في طريقه يدير شؤون ملكه، ومر وقت طويل ونسي لقاءه مع القزم ونسي الحكاية تمامًا، حتى التقى بأميرة جميلة، قوية وذكية جدًا وقرر أن يتزوجها.

وحينما كان القصر يتأهب بمصابيحه وزينته لزفاف الملك، والمدعوون في أزهى ملابسهم وعطورهم ينتظرون الوليمة الكبرى، إذ بطارقٍ يطرق بوابة القصر الكبيرة بعنف، وما أن انفتحت الأبواب حتى ظهرت رايات زاهية، ودخل القزم ومعه جموع من الأقزام يحملون الهدايا النفيسة والمأكولات الشهية والخمر المعتق في آنية مزخرفة.. كانت المائدة التي أحضرها الأقزام كفيلة بأن تشبع كل المدعوين ولم تضطر حاشية الملك أن تفتح مخازن الطعام المعد لليوم المشهود. ومثلما وعد القزم كانت الهدايا بالفعل غريبة وجميلة جدًا، ملابس مرصعة بالذهب والفضة، سيوف وأسلحة قوية وخفيفة منها الذي يستشعر وجود العدو ويتغير لونه، وأوانٍ محفورة بزهور مجففة ذات رائحة لا تختفي، بالإضافة إلى قصص وأغانٍ من العالم الغريب الذي جاء منه القزم وعشيرته.

تحول حفل زفاف الملك هيرلا إلى حفل اسطوري لم يحدث مثله في التاريخ.. استمر مدة ستة أيام حتى انتهى وبعد انتهاء مراسم الزواج الملكي اختفت مجموعة الأقزام وكأن الأرض قد ابتلعتهم وسط حيرة الجميع، أما ملك الأقزام فقد أكد على الملك هيرلا أن يفي بوعده وأنه بعد سنة وتحديدًا في مثل هذا اليوم بالضبط، عليه أن يأتي ويرد الزيارة.

تمر الشهور ونسي الملك الاتفاق، وبدأت قوته وثروته تزداد، وتوسعت مملكته إلى حدٍ كبير، ثم رزق بطفلة وكان في طريقه أن يرزق بمولود آخر لكنه تلقى دعوة من القزم المجهول لتنفيذ الاتفاق. وبالفعل استعد الملك هيرلا بالهدايا والأطعمة ليرد الجميل للملك القزم، وجمع أفضل الجنود وسافر هو والحاشية مستخدمين خارطة الطريق التي حملتها الدعوة.

سافروا في الصحراء لمدة ثلاثة أيام حتى تعبت خيولهم، وفي الليلة الرابعة وصلوا إلى هاوية من الرمال السحيقة، فاحتاروا كيف يعبرون، وإذ بحارس ملك الأقزام يأتي إليهم ويشير إليهم بأن يتبعوه. سار بهم الحارس إلى ممر رملي طويل مضاء بمصابيح صفراء قاتمة حتى وصلوا إلى بوابة ضخمة لم تفتح إلا عندما تكلم القزم بلغة لا يعرفها البشر.

شعر هيرلا بالخوف بعد أن وجد نفسه هو ورجاله داخل عالم غريب.. عالم ممتلئ بمخلوقات وكائنات ذات أشكال غير آدمية.. الفضول بدأ يحل محل الخوف وأصبح الملك متأكدًا أنه خارج حدود عالم البشر.. هذه هي مملكة الجن.

تدريجيًا بدأت مئات من الأنوار التي تشبه ضوء الشموع تضيء كل شيء ودخل الملك هيرلا إلى بهو قصر مهيب، تتلألأ في أسقفه مصابيح وإضاءة لا يبدو أنها تعمل بزيت الوقود.. البهو عظيم وكبير تتوسطه مناضد طويلة مفروشة بالحرير، رصت عليها أطباق من الذهب الخالص المنقوش التي احتوت على الأطعمة الشهية والنبيذ المصفى.

قدم الملك هيرلا هداياه الثمينة إلى ملك الجن الذي رحب به وأحسن استقباله، ثم بدأ حفل الزفاف الذي استمر لمدة ستة أيام متواصلة، وفي اليوم السابع لاحظ الجنود أن عيون أحصنتهم قد تبدلت وصارت تشبه عيون الأموات. الملك حاول أن يطمئنهم وفسر لهم أن السبب ربما هو الظلام الذي تعيش فيه تلك المملكة الغريبة.

على نهاية اليوم قرر الملك الرحيل لكن قبل أن يرحل جاءه ملك الجن وأهداه كلبًا له أعين حمراء غريبة ووضعه فوق حصان عظيم، وقال أن هذا الكلب سوف يكون دليلهم في رحلة العودة، وأن الأوقات تتغير والزمن يتغير، وطلب من الملك ألا ينزل عن الحصان أبدًا إلا بعد أن ينزل الكلب أولًا. الطلب غريب جدًا، إلا أن الملك هيرلا تقبله على مضض دون أن يفهم السبب ومضى في طريقه إلى الخارج نحو سطح الأرض عازمًا العودة إلى دياره أخيرًا.

بعد خروجه من الجبل لاحظ الملك أن شكل الأرض قد تغير، الشجر والطريق مختلف تمامًا عما اعتاد عليه.. كانت كل المناظر فوق سطح الأرض غير مألوفة.. بيوت وحقول وحدائق في الطريق لم تكن أبدًا هنالك من قبل!

تاه الملك وجنوده وظلوا يبحثون عن شخصٍ يسألونه حتى صادفهم رجل عجوز يقف على جانب الطريق.. تقدم إليه الملك وسأله عن الاتجاه إلى مملكة هيرلا.. قال العجوز أن الملك هيرلا اختفى داخل ممر الجبل ولم يعد، ثم ختم كلامه وقال أن هذا مجرد تاريخ قديم لأنه حدث منذ ثلاثمائة عام وقد اندثرت المملكة.

أحد الجنود لم يستوعب ما سمع ونزل من على الحصان وأراد أن يقتل العجوز المجنون لكن في نفس اللحظة التي لامست فيه قدمه الأرض تلاشى وتحول إلى كومة من التراب والرماد الأسود.

أمسك الملك بيد أحد الرجال وأصدر أمره بألا تتحرك الخيول حتى يقفز الكلب إلى سطح الأرض، وأدرك أنهم ظلوا في الجبل ثلاثمائة عام، وأن لعنة قد أصابتهم بطريقة ما. وحاليًا هو ورجاله ما يزالون يمتطون خيولهم ويهيمون على وجوههم في الممر ينتظرون نزول الكلب أولًا، بعد أن تحولوا إلى قافلة من الأشباح لا هم أموات ولا هم أحياء، يقتلون كل من يلتقي بهم.

بعد أن انتهى حزقيال من سرد تلك القصة كان أمامه هو وآدم خياران كلاهما مر. الأول أن يكملوا طريقهم في قلب الصحراء والثاني المخاطرة ودخول ممر الملك هيرلا ومجابهة تلك الأسطورة. في النهاية تقدم الاثنان إلى داخل الممر بخطوات بطيئة ثقيلة ولم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى ابتعلتهما ظلمة وترددت في الأجواء صرخات.. وأشباح.

الفصل الثامن

أحداث جانبية

داخل مكتب هاشم امتزجت رائحة القهوة مع الدخان المتصاعد من السجائر مما جعل الجو خانقًا أكثر من اللازم، لكن هذا لم يمنع هاشم من إشعال سيجارة أخرى، قبل أن ينفث من فمه حفنة من الدخان تصاعدت إلى الجو في دوائر متلاشية، ثم التفت إلى نجيب قائلًا في حدة:

- أخبار جديدة؟

هز نجيب رأسه إيجابًا:

- أجل..

قال هاشم في عصبية:

- جيد، قبل خمس دقائق وحسب، تلقيت اتصالًا جديدًا من مدير المنظمة، كان يبدو مستاءً بشدة، واتهامات لي بالتقصير، مع تلميحات غير مقبولة.

غمغم نجيب:

- نحن نبذل كل ما في وسعنا.

هتف هاشم في صرامة:

- هذا مشروعي ولن أسمح لأحد أن يتجاوزني يا نجيب.

هز نجيب رأسه:

- بالتأكيد..

- الآن.. ما الجديد لديك؟

قال هاشم:

- البداية من إفريقيا.. أنت تعلم أن إفريقيا قدراته تتجاوز مسألة السيطرة على العقول وأنه يستطيع العبث بالطبيعة والتحكم في الأشياء.

- بلى..

قال نجيب في لهجة تقريرية:

- لدينا معلومات تفيد أنه يعاني من انفصام حاد في الشخصية.. النتيجة إنه لا يستطيع السيطرة على تلك القدرات وكأن كل شخصية داخله تحمل قدرة منفصلة.. يمكن القول أنه لم يعد خطرًا رهيبًا.. صحيح أنه خطر موجود لكن من الممكن السيطرة عليه.

وأخرج سوار معصم غريب الشكل وقدمه إلى هاشم وأضاف في شيء من الحماس:

- فريق الأبحاث صنع لنا تلك الأساور الخاصة للحماية من التحكم العقلي.

أمسك هاشم السوار بين يديه وسأل في شك:

- هل تم تجربتها؟

هز نجيب كتفيه وهو يقول:

- للأسف لا.. لم تسنح لنا الفرصة بعد لاختبارها لكن نظريًا هي جيدة.

وضع هاشم السوار جانبًا وسأل نجيب:

- التالي؟!

تنهد نجيب قائلًا:

- آدم..

ثم وضع أمام هاشم بعض الصور المختلفة لآدم وغادة في أماكن وتوقيتات مختلفة وعاد يقول:

- بعد اتصال الدكتور صفوت مباشرةً تم تكليف فريق من أفضل رجالنا ومن النخبة تحديدًا بمراقبة منزل غادة.

تفحص هاشم الصور باهتمام قبل أن يقول:

- لا يكفي.. نحتاج أن تكون لنا آذان في الداخل.

ابتسم نجيب وقال في سرعة:

- حدث بالفعل.. كاميرات صغيرة وأجهزة تصنت دقيقة تم وضعها هناك.. أستطيع أن أقول لك بكل ثقة أننا نسمع كل حرف يقال ونشاهد كل حركة.

رفع هاشم سبابته:

- لا تنسَ.. لا نريد أن نظهر في الصورة أو نتدخل حتى الآن.

- الأوامر واضحة للفريق المكلف بعدم التدخل في الأحداث إلا في حالة تعرض آدم إلى خطر شديد.

هز هاشم رأسه ثم قال وهو يرفع تقريرًا بين يده:

- في هذه التقارير توجد نقطة جديرة بالاهتمام.. التقرير يرصد أن آدم ينمو بطريقة متسارعة وقد يؤدي ذلك إلى حدوث انهيار في خلايا جسده.. علينا أن نكون مستعدين إلى ما لا يحمد عقباه.

- فريق الأبحاث العلمي أرجع السبب إلى حقن النمو فائقة القدرة.. لكن لا تقلق.. لن يستمر الأثر طويلًا.

التقط هاشم نفسًا عميقًا وهو يقول:

- جميل..

ابتسم نجيب:

- كانت ضربة حظ حدوث اتصال بين آدم وبين أحد رجالنا.

غمغم هاشم:

- لا مجال للحظ فيما حدث.. أذرع المنظمة منتشرة في كل مكان.

وصمت برهة وجذب نفسًا طويلًا من سيجارته ثم أضاف في حزم:

- مسألة وصولنا إلى مكان آدم كانت مسألة وقت ليس أكثر.

- اعتقدت في البداية أننا سنعيده إلى المختبر بمجرد العثور عليه.

مال هاشم نحو نجيب وقال:

- فريق الأبحاث يرجح أن وجود آدم في بيئة طبيعة سيساهم كثيرًا بناء شخصيته وتجنب الانتكاسات الصحية.. نحتاج إلى أن نجعله يشعر بأكبر قدر من الحرية.

تردد نجيب قليلًا وانخفض صوته فجأة هو يقول:

- ماذا لو كان تأثير غادة على آدم تأثيرًا سلبيًا؟

تراجع هاشم في مقعده وانعقد حاجباه وهو يسأل نجيب:

- بمعنى؟

أجاب نجيب في توتر:

- أقصد أن جزءًا كبيرًا من الفضيلة والخير التي لدى أي إنسان يتم زرعها بواسطة الأب أو الأم وأيضًا البيئة المحيطة.

وصمت برهة ثم أضاف في عصبية:

- آدم الآن في وسط بيئة مختلفة ويختلط مع شخصيات متنوعة.. قد يؤدي ذلك إلى تكوين شيء آخر.

هتف هاشم:

- نجيب.. الخالق هو الذي وهب الخير وخيرنا بينه وبين الشر.. لكن الاختيار في النهاية هو غريزة.. هل تفهم.. أشخاص مثل آدم يتم منحهم أفضلية أكثر من الآخرين لهذا لا داعي للقلق.. في النهاية نحن سنحصل على ما نريد.

***

جلست غادة وراء مكتبها تتصفح المواقع الإلكترونية باهتمام شديد.. بالأمس تحدث معها آدم عن رؤية شاهد فيها مدينة قديمة يطلق عليها سكانها اسم مملكة بابل، لذا وبدافع الفضول وحب الاطلاع بدأت تحاول الوصول إلى أي معلومة عن تلك المملكة. في البداية وجدت عدة نصوص مبتورة لكنها لم تجد شيئًا مفيدًا حتى قرأت مقالة للكاتب (محمود الجعيدي) على صفحته الموثقة بالعلامة الزرقاء في الفيسبوك يقول فيها أن "بابل" كانت تعتبر من أعظم وأقدم المدن في العالم القديم. اسم "بابل" هو اسم كلداني يعني (بوابة الإله)، وفيها ازدهرت فيها العلوم والمعارف، وأتقن "البابليون" شيئًا لا يتقنه غيرهم في العالم وهو السحر، وعلى الرغم من تطور "البابليون" وتفوقهم في كافة المجالات إلى أن سبب انحدارها وهلاكها هو السحر، فقد انتشر السحر حتى جعل الناس يؤمنون بأشياء ليست حقيقية، وبعد انتهاء عصر "النمرود" انتشر السحر في أرض "بابل" فهي موطن "النمرود" أول من تعلم السحر على يد إبليس، وأتقن البابليون السحر الأسود واستخدموه في كافة المجالات وبالأخص في الحروب.

ذكر المؤرخ الأرامي "نيبو حدد" أن هناك معركة قامت بين الأراميين والكلدانيين واستخدم أهل "بابل" السحر والشعوذة وأيضًا تحضير الشياطين من أجل الفوز في المعركة. فيما بعد، ولد ساحر يعد من أخطر سحرة العالم ويدعى "هازارد"، الذي تعلم السحر الأسود في مدينة "اوروك" السومارية، وأتقن فنون "سحر المانزازو"

و"سحر الماجي".

سحر المانزازو: يعد من أبشع أنواع السحر حيث يتم تحضير "القرين" الخاص بالموتى لمعرفة أسرارهم وتكمن بشاعته في طريقة استحضاره عن طريق استخدام جسد الموتى للقيام بالطقوس ويسمى هذا السحر في الوقت الحاضر بسحر "النيكرومانسي وهو ما زال يمارس حتى الآن.

سحر الماجي: هو سحر قديم تعلمه الملك "النمرود" من إبليس نفسه، ولكن يعود أصل هذا السحر إلى "عزازيل" و"شمهازي"، ويقال أنهم المعروفين في الأديان السماوية باسم "هاروت" و"ماروت" وهو أكثر أنواع السحر فتكًا وقوة في "بابل".

تنهدت غادة وبقيت وقتًا طويلًا تفكر فيما قرأته، وهل الكلام المكتوب صحيح أم مجرد نوع من أنواع الأساطير القديمة، إلى أن قطع تفكيرها حركة خفيفة تأتي من ورائها.. التفتت بهدوء فشاهدت آدم يقترب منها.. سألته:

- أتبحث عن شيء؟

قال آدم وقد غلبه التردد:

- كنت أبحث عن دواء.. إنني.. إنني أشعر بصداع.

قالت بنبرة تفهم وإشفاق:

- كالعادة..

تقدم آدم خطوة إلى الأمام:

- نعم، كالعادة..

- أعتقد أن لدي شريط أسبرين موجود في مكان ما هنا!

جلس قبالتها وقال:

- هل تمانعين إن جلست معك؟

- لا مانع طبعًا..

أشار آدم على شاشة الكمبيوتر والمقالة المفتوحة:

- مملكة بابل.. إذن...

- إذن ماذا؟!

- إذن يبدو أن كلامي قد أثار انتباهك.

أغلقت غادة شاشة الجهاز بحركة سريعة وقلقة، وقالت:

- مجرد فضول ليس أكثر.

- لكن.. لكن كيف تفسرين أنني أعلم كل تلك الأشياء عن بابل.

- ربما قرأتها في مكانٍ ما.. أحيانًا تكون الذاكرة مخادعة.

نظر إليها آدم ثم قال:

- أخشى أن تكوني مخطئة!

نهضت غادة من مكانها وقالت:

- سأذهب لأحضر لك الإسبرين..

غابت لدقيقة واحدة ثم عادت وناولت آدم قرص الإسبرين وصبت لنفسها كوب قهوة جديد.. قال آدم كما لو كان يتحدث مع نفسه:

- المشكلة أنني أحيانًا لا أستطيع تذكر اسمي.. إنه اسم قديم غير متداول حتى أنا نفسي أرغب في نسيانه لكنه يظل اسمي.

وألقى نظرة خارج النافذة وكأنه يبحث عن شيء:

- هناك شيء آخر يحيرني.. لماذا كل تلك الذكريات القديمة المضطربة عن بابل كما لو أنني عشت حياةً ثانية.

ثم ابتلع الأسبرين وأخذ رشفة من الماء وقال:

- إنني أسأل نفسي كيف سينتهي كل ذلك؟

تنظر إليه غادة:

- هل تشعر أنك مريض؟

ابتسم:

- لا.. كنت فقط أعبر عما يخطر في بالي من أسئلة.. ليس بالضرورة أن تجيبي.. أنا كنت أسال نفسي فحسب.

ظلت غادة صامتة قبل أن تقول:

- هناك الكثير من القصص لأشخاص أدعو أنهم عاشوا حياةً سابقة.. أي أنهم ماتوا ثم ولدوا من جديد في جسد إنسان آخر وقد نسبها القدماء إلى ما يعرف بعقيدة التناسخ، أي أن الأرواح تنتقل بعد الموت.

نظر إليها آدم بفضول:

- وتصدقين ذلك؟

- هل تسأل لأنك تريد حقًا إجابة؟

- بالطبع.

أطرقت غادة رأسها تفكر قبل أن تجيب:

- لا أعتقد أن الخالق يعاني من أزمة في خلق أرواح جديدة حتى يعيد تكرارها.

قال آدم:

- أتفق معك.. بالنسبة لي أنا أشعر أن وجودي في تلك الحياة ينطوي على مغزى كبير.

وتنهد بقوة قبل أن يضيف:

- وأنا أنوي كشفه.

انصرف آدم وعادت غادة تجلس بمفردها.. التقطت كوب القهوة من فوق سطح المكتب ثم ارتشفت رشفة طويلة وأضاءت مرة أخرى شاشة الكمبيوتر. حركت المقالة التي كانت تقرأ فيها حتى وصلت إلى نهايتها وتوقفت أمام صورة تمثال لرجل عظيم من بابل.. تمثال آدم.

الفصل التاسع

ممر الأشباح

قبل الميلاد..

داخل ممر هيرلا، شق آدم وحزقيال طريقهم في حذر، تحيط بهم تلال من الرمال والظلال الكثيفة التي تحجب وتبتلع كل ما خلفها. قال آدم بلهجة تجمع بين المزاح والجد:

- تخيل أننا نسير في أرض يقال أنها مسكونة بالجن.

رد حزقيال في تأنيب وهو يعض شفتيه:

- أخبرتك أن ننتظر حتى الصباح.. هذا المكان لا يخضع لقوانين الطبيعية.

تنهد آدم وهو يمسح الغبار الذي تراكم فوق وجهه:

- ما ينتظرنا ليلًا سوف نجده في النهار أيضًا.

- يقال أن هيرلا يمتلك في كل يد ست أصابع.. ذلك جزء من اللعنة التي أصابته.

- ربما..

غمغم حزقيال:

- أعتقد أنه بالفعل يمتلك ست أصابع!

ضحك آدم:

- لديك فرصة ذهبية أن تعد أصابعه إذا ظهر لنا.

التقط حزقيال نفسًا عميقًا وقال:

- سوف أفعل.. صدقني.

ثم جال ببصره في المكان وخيل إليه أن الظلام يتشكل في صورة غير بشرية:

- الممر يبدو مخيفًا أكثر من اللازم.

هز آدم رأسه:

- حتى الآن لا يوجد شيء غريب.

ولم يكد يقولها حتى ظهر أول شيء غريب حين هبت ريح شديدة وحركت الرمال فظهرت أشكال داكنة غارقة كانت الرمال. جثث كثيرة متيبسة مشوهة الملامح.. ثم عادت الرياح مرة أخرى وحركت الرمال فابتلعت الجثث من جديد.. وظل الأمر يتكرر مرارًا وتكرارًا وبدا أن الجثث تسبح وسط بحر وأمواج من الرمال.. تظهر وتختفي.. تطفو وتغرق!

بدأ حزقيال عصبيًا وهو يقول:

- أي فعل شيطاني هذا الذي يحدث؟!

ومن مكان ما هبت ريح باردة عبر الممر ثم ظهر أثر حافر حصان وتشكل على الرمال.. ثم ظهر أثر ثانٍ.. وثالث.. ورابع.. العشرات من آثار الحوافر. شعر حزقيال أن المكان يمتلئ ببطء بأرواح شريرة

كريهة واشتم رائحة كبريت عابرة وتدريجيًا تكونت أمامه ملامح ضبابية لرجل فوق حصان. كانت ضبابية جدًا لدرجة أنه شك في بصره ولم يجسر على التقدم أو الاقتراب.. قال وهو يمد يده يتحسس مقبض سيفه:

- لدي إحساس سيئ حول هذا الأمر.

فجأة، دوت ضحكة غريبة كأنها غناء الماعز وساد الصمت ما عدا صوت الرياح، ومن العدم تجسد الملك هيرلا في منتصف الممر.. ظهره مقوس بطريقة غريبة.. الفك السفلي رفيع جدًا.. أسنانه واضحة خلف شفاه سوداء ولا أنف له. عيناه بيضاء تمامًا تحتوي على رغبة في تدمير الحياة. رمق حزقيال وآدم في برود ثم قال بصوت هادئ ونبرة غليظة:

- المعذرة.. لم أدر أن لدينا ضيوف اليوم!

ودوت ضحكة خبيثة، وزحف ضباب خفيف من جميع الجهات، وتدريجيًا بدأ يخرج من العدم بقية رجال الملك هيرلا بالملابس البيضاء والسوداء، وارتفع صهيل أحصنتهم عاليًا مزعجًا.. كانوا يقفون جنبًا إلى جنب.. جنود وفرسان.. نساء وأطفال.. وجوههم شاحبة ممصوصة.. هائمون بين عالم الأحياء والأموات.. ينظرون جميعًا إلى حزقيال وآدم في صمت ويحيطون بهم في دائرة محكمة لا مجال للخروج منها.

ومع ظهورهم تسمر حزقيال في مكانه وقد شلته الصدمة بينما حافظ آدم على رباطة جأشه وحدق في الكلب الضخم الذي يجلس

فوق الحصان كأنه تمثال من الحجر الأسود. أخرج الملك هيرلا سيفه ووضعه على عنق حزقيال الذي تمالك نفسه أخيرًا وأراد التراجع:

- لو تحركت لقطعت رأسك.

شعر حزقيال برعشة باردة تسري في جسده وهو يعد ست أصابع نحيلة في يد هيرلا وقال في استسلام:

- لن أفعل.

ابتسم هيرلا:

- أرجوك لا تعتقد أن الأمر شخصي.

وأشار لرجاله الذين يصغون إلى ما يقال:

- المشكلة يا صديقي أن القدر لا يريد أن يغلق دفتر حساباته معنا.

وعاد يستطرد:

- تسليتنا الوحيدة هي أشخاص مثلك.

ثم ضحك ضحكة قبيحة:

- أشخاص حمقى ضلوا الطريق.

تدخل آدم في الحوار وقال بلا تمهيد:

- يمكنني أن أبرم معك اتفاقًا..

قطب الملك هيرلا جبينه وحرك ذبابة سيفه نحو عنق آدم وهتف بصوت خشن:

- اتفاق مع شيطان آخر؟!

ظهر الغضب واضحًا على وجه آدم:

- اللعنة عليك.. لا تسميني هكذا.

شعر حزقيال بشيء من عدم الارتياح إزاء المنحنى الذي اتخذه الحوار بينما قال هيرلا مخاطبًا آدم:

- ماذا تحب أن أدعوك.. أدعوك الرجل الطيب أم...

وصمت هنيهة قبل أن يستطرد ببطء وهو ينظر جيدًا في عين آدم:

- كاهن الرب..

تحرك آدم نحو الكلب وقال دون أن يلتفت إلى هيرلا:

- أستطيع أن أحررك من اللعنة.

ضحك هيرلا ساخرًا وهو يرخي سيفه:

- يا عزيزي إن لك مزاح طفل صغير.. هل تعتقد أننا طوال ستمائة عام لم نجرب كل شيء؟!

احتقن وجه آدم وشعر بمهانة مستترة في الكلام:

- لا أتحمل سخريتك يا هيرلا.. لم أعتقد يومًا أن الأشباح ثقيلة الظل هكذا.. أرجوك تحملني قليلًا.

مط هيرلا شفتيه في ضجر:

- حسنًا.. أنا أسمعك.

أشار آدم بيده قائلًا:

- ماذا لو قلت لك أنني قادر على أن أخلصك من لعنتك الأبدية؟

قال هيرلا في جدية:

- أقول أن هذا شيء مثير للاهتمام.

ابتسم آدم وهو يمد يده نحو الكلب الجاثم فوق الحصان ثم تساءل بهدوء:

- هيرلا.. ألم يخطر ببالك يومًا قتل الكلب؟!

انفرجت شفتا الملك هيرلا وكأنه يهم بقول شيء ما إلا أنه لم يلبث أن تراجع عن هذا وقد صدمه السؤال. تبادل النظرات بينه وبين الجنود في توتر وعصبية.. يبدو جليًا أنهم لم يفكروا في شيء مثل هذا من قبل وسرت بينهم همهمات خافته.. غمغم هيرلا في حيرة:

- نحن.. لم...

قاطعه آدم بسرعة:

- يسرني أنك لم تفعل.

واستطرد بعد صمت قصير:

- الكلب هو مفتاح اللعنة.

وأغمض عينيه للحظة كأنه يستجمع طاقته ثم فتحهما مجددًا قبل أن يضيف:

- من الخطأ التخلص من المفتاح.

وحمل الكلب من فوق الحصان وسط صدمة ودهشة الجميع ووضعه على الأرض ببساطة شديدة جدًا.

شهق هيرلا واتسعت عيناه عن آخرهما قائلًا:

- مستحيل.. كان يجب أن تموت مجرد أن تلمسه.. أنت لست بشرًا

قال آدم مبتسما بينما اخذ الضباب والرياح يعصفان بالمكان:

- إنه لشيء مؤسف حقًا.

في تلك اللحظة انتاب هيرلا إحساس غريب بالخفة وكأنه يطير في الهواء واعتقد أن الأرض تحته ترتجف، تجرأ ونزل من فوق الحصان ولامست قدماه الأرض لأول مرة منذ ستمائة عام.

خلع الملك هيرلا حذاءه الجلدي فغرقت قدماه في الرمال الناعمة وبدأ مثل طفل يستمتع بخطواته الأولى وسرعان ما نزل بقية جنوده وحاشيته وعلت تنهدات الارتياح والسعادة.

اقترب حزقيال من آدم الذي يقف صامتًا:

- ما الأمر؟!

لم يبدُ عليه حتى أنه قد سمعه.. لقد بدأ شاردًا وكأنه يفكر تفكيرًا عميقًا.. أمسكه حزقيال من كتفه قائلًا:

- آدم.. هل أنت نادم على تحريرهم؟

التفت له آدم:

- أنا لا أندم .. لا جدوى من النظر إلى الوراء.

- أنت محظوظ.. أحيانًا حين أحاول النظر إلى الأمام لا أرى غير الماضي.

نظر آدم إلى الملك هيرلا ورجاله ثم قال:

- فقط أتساءل عن مصيرهم؟!

- لقد خرجت هذه المسألة الآن من بين يدك وأظن أن ما فعلت لهم يكفي. دعهم يستكشفون العالم يا صديقي وهيا نكمل طريقنا.

وبالفعل تحركا سويًا في سلام حتى وصلوا إلى نهاية الممر أخيرًا.. كان عبارة عن حاجز أسود يشبه ستارة من الحرير وبمجرد أن عبراه تبخر على الفور مثل الدخان، ووجدوا أنفسهم على أطراف أرض واسعة، يداعب نسيم دافئ وجوههم، وفوقهم امتدت السماء يضيئها بريق النجوم، وأمامهم مباشرة كانت تظهر أبواب المدينة.. مدينة بابل العظيمة.

الفصل العاشر

الساعة الثانية عشر

استغرقت غاده في نوم عميق وصوت أنفاسها يكسر حاجز الصمت والسكون، صوت ثابت رتيب لا يرتفع ولا ينخفض، شعرها الأسود الناعم منسدل فوق الوسادة، تفوح منها رائحة الدفء والحرارة. بالقرب من فراشها وفوق منضدة خشبية، فنجان قهوة فارغ وبجواره كتاب ذو حجم سميك يتحدث عن الاستنساخ، وفوقه ساعة يد رقمية تشير إلى الثانية عشر.. يمر الوقت.. يتحرك باب الغرفة ببطء شديد ويدخل منه آدم وقد تغير كثيرًا.. سنوات عمره اقتربت من العشرين.. استطالت قامته وتضخم وجهه.. نحيف وكأنه يعاني من سوء تغذية.. شعره طويل ومتشابك بعض الشيء. اقترب من غادة بخطى ثابتة دون أن يصدر صوتًا.. توقف عند رأسها ومال نحوها يمعن النظر في وجهها بعينين جامدتين.. يبدو كأنه يحاول أن يتذكر أو يبحث عن شيء ما.. انتابه شعور قوي ورغبة جامحة في أن يلمسها لكن غادة استشعرت وجوده ففتحت عينيها ببطء. رأته خيالًا مشوشًا.. ضيقت عينيها ونظرت نحوه وقالت بحذر ممتزج بالدهشة:

- آدم.. أهذا أنت؟!

ابتسم لها:

- نعم.

لم تجد ما تقوله.. راحت تحدق فيه وكأنها تراه لأول مرة وظهر عليها بعض الخوف.. عبست قليلًا في وجهه وهي تسأله بصوت متلعثم:

- هل تريد شيئًا؟

- لا.

ثم عاد بظهره إلى الوراء وخرج من الباب كأنه مشهد صامت في فيلم يدور شريطة إلى الخلف. لم يمر وقت كثير حتى استوعبت غادة الموقف.. أضاءت المصباح ونهضت من فراشها وذهبت تبحث عنه. لم تجده في غرفته كما توقعت.. اتجهت إلى الشرفة وهناك عثرت عليه يجلس على الأرض في أحد الأركان يحدق في السماء.. جلست على ركبتيها حتى تصبح قريبة منه وحاولت قدر استطاعتها أن تبتسم:

- أنت بخير.

أجاب باقتضاب:

- بخير..

ترددت غادة:

- نحن لم نتحدث منذ أن.. أنت تعلم...

لانت ملامحه وهو يقول:

- آسف جدًا.. لم أقصد أن أُخيفك.

هتفت بسرعة كأنها كانت تتوقع ان يقول ذلك:

- أنا لست غاضبة منك إطلاقًا.

التفت لها وسألها:

- كم تعتقدين أنني أبلغ من العمر الآن؟

غمغمت في تفكير:

- لست متأكدة.. ربما في بداية العشرين.

- أتفق معكِ.

تراجعت في مكانها متسائلة:

- لكنك صرت نحيلًا بعض الشيء!

ضحك ضحكة قصيرة:

- هذا أفضل من أن أصير بيضاوي الشكل.

بادلته الضحك:

- صدقني لا شيء تغير.. أنت ما زلت طفلي الصغير.

ثم أخرجت علبة سجائر وحاولت أن تشعل واحدة لتحرق معها توترها.. قال وهو يلتفت نحوها:

- عدت للتدخين مجددًا؟!

أجابت على مضض:

- كما ترى..

ابتسم وهو يتطلع إليها لحظات في صمت ثم قال:

- حتى أكون صريحًا معك أعتقد أن هذا الأمر لا يليق بك.

هزت رأسها هزة خفيفة وقالت في شيء من العصبية:

- سيجارة من حين لآخر لن تضر.

سحبت نفس دخان عميق ثم حاولت تغيير مجرى الحديث وسألته باهتمام:

- أخبرني لماذا تجلس هكذا؟

شرد ببصره وقال كأنه يحدث نفسه:

- أنا أفكر.. هذا المساء داهمتني أفكار قاسية دون إنذار.

- أفكار مثل ماذا؟

بدا لها منهكًا وهو يقول كأنه يعاتب نفسه:

- مثل.. منذ متى فقد الناس الإيمان؟

هزت كتفيها وقالت في تردد:

- أنا لست واثقة مما أقول لكن...

قاطعها وهو يشير بيديه:

- لست بحاجة لقول شيء.

لاحظت تجاعيد عميقة ظهرت حول عينه وهو يكمل كلامه بصوت مرتفع:

- إن لدي رغبة عارمة في معرفة حقيقتي.. أشاهد أحلام متقطعة حول عالم يمتزج فيه كل شيء، سماء حمراء، أشخاص يرتدون ملابس تاريخية، أصوات مختلطة، وظلال أمواج عالية.. الغريب أنني أشعر أن هذا العالم ليس غريبًا.. هذا عالم أعرفه جيدًا.. عالم متداخل رهيب.. السؤال هنا.. أين هذا العالم.. ومن أنا؟

- أنت آدم..

هز رأسه نفيًا قبل أن يقول في بطء:

- اسم المرء لا يعني ذلك من هو.. جميل أن يكون لنا أسماء ومع ذلك هي لا تعبر عمن نكون.

التقطت نفسًا عميقًا وقالت:

- أوافقك الرأي إلى حدٍ ما لكن الأسماء تشكل جزءًا من هويتنا.. محمد يختلف عن ديفيد يختلف عن جوزيف.. جزء من الإنسان يكمن في اسمه حتى لو كان المنطق يقول غير ذلك.

لم يبدُ عليه أنه مقتنع بكلامها.. خيم الصمت قليلًا ورأت غادة التشتت واضحًا في عينه قبل أن يقول في عصبية شديدة:

- دعيني أطرح عليك سؤالًا آخر.. إلى أين نحن ذاهبون؟ ما هو الهدف من الحياة؟ الفناء! تتفتت ذراتنا وتتحول إلى شيء آخر.

- آدم.. ماذا يجري؟ هل أنت واثق أنك بخير؟ يمكن أن نستشير

طبيب آخر و...

قاطعها في حزم:

- الطبيب لن يغير شيئًا.

وحرك يده فتحركت بعض قطع الأثاث من مكانها وارتعشت الأضواء لثوانٍ قليلة ثم عادت لتثبت مجددًا، وأضاف فيما يشبه الأسف:

- لا أحد يمكنه تغيير شيء.

ثم بدأت عيناه تغيمان ونظر إلى السماء كأنه ينظر من خلالها إلى عالم.. عالم آخر.

***

نفس التوقيت..

على ناصية الشارع وبالقرب من مدخل العمارة التي تعيش فيها غادة كانت توجد سيارة سوداء متوقفة منذ ساعة تقريبًا. رغم أن الليل يوشك أن ينتصف لكن ما زال الناس في الشارع غدون ويروحون إلا أن أحدًا لم يهتم بالسؤال عن تلك السيارة ولماذا تقف هكذا!

داخل السيارة السوداء تثاءب نجيب وفرك عينيه في إرهاق:

- كان ينبغي أن أقضي هذه الليلة في منزلي!

ابتسم هاشم الذي يجلس بجواره:

- إنها ليلة هادئة على أي حال.

قال نجيب وهو يقوم بإنزال زجاج النافذة لإدخال بعض الهواء:

- لكن توجد لفحة برد مزعجة.

لم يبدِ هاشم أي تعليق واكتفى بالتحديق إلى شرفة الشقة. شاهد آدم وغادة وهما يجلسان سويًا.. قال وهو يشير إلى شقة غادة في قلق:

- ما تزال الأنوار مضاءة!

قال نجيب:

- كما تعلم فريق المراقبة قام بتأجير الشقة المقابلة لها والشقة التي تعلوها أيضًا حتى نضمن أن آدم تحت أعيننا 24 ساعة في اليوم لهذا لا داعي للقلق.. فريقنا مستعد.

هز هاشم رأسه:

- جيد.. أريد غدًا تقريرًا مفصلًا عن المحادثة التي تدور بين غادة وآدم الآن.

- فليكن..

وصمت بضع لحظات قبل أن يقول:

- أظن أن آدم بدأ يشك في وجوده.

- الشك هو بداية اليقين.. علينا فقط أن نكتفي بالمراقبة وننتظر الوقت الحاسم للظهور.. لا أريد أن يحدث تصادم بيننا وبينه في

الفترة الحالية. أريده أن يكون مستعدًا تمامًا.. وحين يعتقد أنه لا توجد إجابة لأسئلته نظهر نحن على هيئة المنقذ في الوقت الحاسم.. توقيت الحقيقة أهم من الحقيقة نفسها.

ثم تجمد في مكانه على نحو جعل نجيب يسأله في قلق:

- ماذا حدث؟

تجمدت نظرات هاشم قليلًا ثم التفت إلى نجيب:

- هل سمعت هذا الصوت؟

عقد نجيب حاجبيه:

- أي صوت؟

صاح هاشم في حدة:

- أأُصبت بالصمم؟ صوت يطلب أن يتكلم معي.

غمغم نجيب:

- أنا لم أسمع شيئًا.

ورفع يده فظهر السوار الذهبي المستخدم ضد التحكم العقلي وأضاف قائلًا:

- هل ترتديه؟

هز هاشم رأسه:

- نعم.. أظن أن...

وفجأة تبدل المشهد أمامه للحظة واحدة.. لحظة واحدة كانت كفيلة كي يشاهد ابنته مصلوبة على جدار غرفة مكتبه.. عيناها مخلوعتان من مقلتيهما.. فكها عارٍ من اللحم مفتوح في صرخة صامتة.

صرخ هاشم:

- لا..

انتفض نجيب في مقعده:

- هل أنت بخير؟

شهق هاشم وأشار إلى نجيب بتوتر:

- تحرك بالسيارة..

أدار نجيب السيارة وانطلق بها مسرعًا قبل أن يلتفت إلى هاشم قائلًا:

- أعتقد أن إفريقيا يهاجمك!

قال هاشم في توتر:

- لا ريب أن السوار نجح في التصدي له.

وفكر قليلًا قبل أن يضيف قائلًا في قلق:

- للحظة شعرت أن إفريقيا أوشك أن يسيطر على عقلي وينظر من خلال عيني.

هتف نجيب في حدة:

- (إفريقيا) يريد أن يصل إلى مكان آدم من خلالك.

قال هاشم في صرامة:

- لا بد من القضاء عليه في أسرع وقت لا يمكن أن نخاطر أكثر من ذلك!

وتناول هاتفه وضغط أحد أزار الاتصال وأضاف قائلًا:

- سوف أطلق كل رجالنا خلف إفريقيا.

ثم استطرد في مرارة:

- آدم سيظل في خطر طالما إفريقيا على قيد الحياة.

***

نفس التوقيت..

داخل سحابة من الدخان والبخور أزاح إفريقيا عينه باتجاه السقف والظلال التي تغزو الحائط بعد فشله في السيطرة على عقل هاشم. كان قريبًا جدًا من التحكم فيه لولا تلك الذبذبات المؤلمة التي شلت تفكيره للحظات.. لم يكن يحتاج إلى كثير من الذكاء لكي يعلم أن هاشم يستخدم جهاز حماية خاص.. تحدث مع نفسه:

- أنت تخسر مرة أخرى.

هز رأسه إيجابًا:

- نعم.. لكن لن يستمر هذا طويلًا.

تهللت أساريره:

- إذن لديك خطة جديدة!

ضحك:

- بالتأكيد.. أنا لست أحمقًا مثلك.

- تفاصيل.. أريد أن أعرف التفاصيل.

تنهد في إرهاق:

- ليس الآن.. دعني أستريح قليلًا.

وأطفأ ضوء المصباح وساد ظلام كظلام القبور.. تحدث مع نفسه:

- أنت تعلم أنني أكره الظلام!

تنفس في عمق:

- هذا لأنه يجعلك تتذكر.. أنت لا تكره الظلام.. أنت تخاف منه.

ثم أغمض عينيه وبدأ يستدعي أسوأ ذكرياته.

منذ عشرين عامًا كان إنسانًا آخر ويملك اسمًا آخر.. كان شابًا أوروبيًا ذو ملامح إنجليزية أصلية.. أبيض تمامًا.. متفوق رياضيًا وعلميًا وقائد فريق كرة القدم.. بعد أن تخرج من إحدى الجامعات المرموقة ذهب ضمن بعثة علمية لدراسة أحد القبائل التي تعيش في مستنقعات إفريقيا.. قبيلة ما تزال تعيش في زمن رجل الكهف حيث لا يعرفون شيئًا عن الحضارة والعلوم.. كانت هناك حدود خاصة في

التعامل بين أعضاء البعثة وبين القبيلة.. كل شيء كان يسير على ما يرام حتى شاهد ابنة زعيم القبيلة.. رعد بلا برق.. شجرة ابنوس إفريقية.. عيون زرقاء واسعة.. منحنيات قاسية واعدة عنيدة.. داهمه إحساس لم يختبره من قبل وأشعلت به نيران الشهوة ولهيب الرغبة على نحو غير طبيعي. ظن أنها قد سحرت له.. ولمَ لا وتلك القبيلة مشهورة بالسحر الأسود!

وفي يوم تجرأ على التسلل خلفها في غفلة من الرجال وحاول أن يلمسها ثم هاجمها بقوة غاشمة غير واعية.. الفتاة لم تملك غير الصريخ بصوت عالٍ.. صراخها كان كفيلًا بجذب كل أفراد القبيلة. خرج الأمر عن السيطرة ولم يعد من الممكن التراجع أو التخاذل.. جرجرها بعيدًا وهو يكتم صرختها بقبضة حديدية. رفست بقدميها مثل الذبيحة بينما ثبتها على الأرض ودك جسدها كقطار بخاري بلا مكابح حتى وصل إلى ذروة الجماع ونفث نيرانه وانطفأت شهوته وجنونه. ثم استيقظ ضميره لكن بعد فوات الأوان.. الفتاة لم تعد تتنفس.. ماتت بين يده.. موتها كان هو الصدمة والشيء الوحيد الذي أعاد له عقله حين نظر إليها.. عارية.. مفتوحة الساقين والدم يسيل من بينهما.. عيناها جاحظتان وفمها مفتوح عن آخره يرسم صرخة لم تستطع أن تخرجها.

زحف بظهره إلى الوراء وقد أدرك فداحة وبشاعة ما فعل لكن الوقت كان قد فات واندفع رجال القبيلة يطاردونه هو ومن معه، مطاردة انتهت بمقتل كل أفراد البعثة والتمثيل بهم وسلخ جلود رؤوسهم بلا رحمة، أما هو فقد تم اقتياده إلى ساحر القرية، العجوز،

ابن القحبة، الذي قام بتعذيبه والتنكيل به ثم إلقائه مسلوب الإرادة عاجز عن الاستغاثة داخل حفرة عفنة في باطن الأرض ممتلئة بالدود والبول والأفاعي السوداء.

بعد شهر أصيب بحالة من الذهان العقلي أقرب إلى الجنون والهلوسة.. لم يعد يدرك الوقت أو الزمان ولم يدرِ كم من السنين مرت فصار يشاهد ويسمع كل شيء.. كل حياة.. موت.. شاهد بداية الخلق ونهاية الكون ونفخ إسرافيل في بوق يوم القيامة. كل شيء انصهر من حوله وأنشئ عالم جديد من الخيالات والضلالات. ظهرت له مخلوقات أسطورية.. نساء عاريات لهن أنياب وألسنة أفاعي.. تنانين عملاقة بقشور أسماك ذهبية.. نمور مجنحة بمناقير وتماسيح متوحشة بعين واحدة وألف فك. كلاب سوداء ذات ثلاث رؤوس وخطاطيف من نار. الكل يمزق فيه ويغتصبه ويقتله وينهش عظامه.. غاب عن الحياة.. جسده يتفتت ويتجمع مرة أخرى داخل شرنقة حشرة فضية.. دم ورفث ولحم يختلطان من جديد.. تطهرت روحه من كل الآثام التي ارتكبها وانبعث مرة أخرى وصار كل شيء واضحًا وضوح شموس ناصعة وأقمار مكتملة، عاد خادمًا لإرادة الخالق، وتدريجيًا بدأ ذهنه في الصفاء واستجلاء الحقيقة مثل راهب بوذي وصل إلى أعلى درجات التأمل والذوبان في رحم الكون العظيم، حتى جاء اليوم الذي انهارت فيه جدران الحفرة من حولة وانسحقت.

خرج من الحفرة يطفو في الهواء بطريقة جعلت رجال القبيلة ينظرون إليه على أنه ساكن الجحيم وحاكم العالم السفلي.. كان كتلة

من العظم والجلد.. أشعث مليء بالسواد والطين والدم والقروح والدمامل. خروجه من الحفرة صار أشبه بانبعاث مخلوق جديد.. كائن تم نفخ الروح فيه وعاد من الموت.. رجال القبيلة تركوه يرحل بعد أن انحنوا له في إجلال وتعظيم وقد أطلقوا عليه الاسم الذي عرف به فيما بعد:

- إفريقيا.. إفريقيا.. إفريقيا..

الشاب الأوربي تحول إلى شيء آخر.. روح جديدة وجسد مختلف وكيان مظلم ذو قدرات رهيبة. تنهد إفريقيا في إرهاق حين توقفت ذئاب ذكرياته أخيرًا عن العواء والتمزيق في لحاء مخه، انقضت دقيقتان وهو ساكن في مكانه لا يتحرك، بعدها ظهر أمامه ظلٌ راح يتموج ويتجسد على نحو عجيب، تجسد على هيئة رجل وجهه شاحب كما لو كان قد خرج من قبره للتو، شبح ساحر القرية، العجوز، ابن القحبة.

تطلع الشبح إلى إفريقيا ونظر له نظرة لؤم وتشفٍ.. تشاجر إفريقيا مع نفسه:

- أيها الأحمق، ها هو يظهر لك مجددًا.

- أعتقد أنه غاضب قليلًا!

- تخلص منها إذن.

أشعل سيجارة:

- لا..

صفع نفسه:

- توقف عن برودك.

احتقن وجهه وعقد حاجبية في غصب:

- وأنت توقف عن خوفك.

- أخبرتك أن العواقب ستكون وخيمة.

- لا يهم.

ثم أغمد عقب سيجارته في المنفضة التي أمامه. منفضة مصنوعة من جمجمة ساحر القرية.

الفصل الحادي عشر

عفريت بابل

قبل الميلاد..

تجاوز حزقيال مع آدم أسوار بابل العظيمة موطن السحر القديم ومهد الملك النمرود.. مدينة دائرية تمامًا تقع على ضفاف نهر يجري في الصحراء.

من الداخل بدت مدينة بابل أقرب إلى هلوسة غريبة إذ امتلأت شوارعها بالكثير من التماثيل النحاسية والحجرية ذات الأشكال الفوضوية التي تمثل مخلوقات شيطانية مجنحة. عبر الاثنان ساحة المدينة وشقًّا طريقهما عبر سلسلة من الشوارع المتعرجة.. قال حزقيال وهو يشير إلى حديقة تحتوي على مدفن جماعي وقال:

- المئات من جثث جنود المدينة الذين ماتوا خلال الغزو الفارسي تم دفنهم هنا.. ربما لا تصدق لكن جدي يرقد داخل أحد هذه القبور.

قال آدم باهتمام:

- لم تخبرني بذلك من قبل.. اعتقدت أنك من أصول مدينة (اوروك) السومرية.

- الحقيقة أن أصولي تنتمي إلى (كيميت) الأرض السوداء.. ربما في وقت آخر أقص عليك القصة كاملة.. سوف تجدها مثيرة وأعتقد أنك سوف تهتم بحكاية (السامري) مع أتباع النبي (موسى).

توقف الاثنان عند مفترق طريق وقال آدم:

- الآن كل منا يذهب في طريقه.

تنهد حزقيال:

- لكل شيء نهاية وهذه نهاية رحلتنا سويًا.

- أحيانًا تكون النهايات مجرد بدايات لأشياء أخرى.

ابتسم حزقيال:

- صدقني عقلي البسيط لا يستوعب مثل تلك الكلمات الفلسفية.. أخبرني فقط إلى أين تنوي الذهاب؟

أشار آدم باتجاه مبنى هائل وقال بحزم:

- هناك.

اتسعت عين حزقيال دهشة:

- برج بابل.. لا شك أنك تمزح!

- كلا.. بل أنا في غاية الجدية.

- سمعت أن كل من دخل هناك لا يعود.

هز آدم رأسه نافيًا:

- لا تصدق كل ما تسمع.

قهقه حزقيال:

- حسنًا كما تشاء.. أما أنا سأذهب إلى المكان الذي يليق برجل أحمق مثلي.. إلى أفضل ماخور في تلك المدينة.

أفلتت ضحكة من آدم وقال:

- أراك صرت مجنونًا!

- السفر لمدة شهر كامل في الصحراء كفيل بجعل العاقل مجنون.

عقب آدم على كلامه:

- والغرباء أصدقاء أيضًا.

ثم صافح حزقيال بحرارة:

- اذهب الآن.. الرب معك.

كاد حزقيال أن يعترض على كلامه لكنه ابتسم وهو يهز كتفيه قائلًا:

- حسنًا كما تشاء.

واحتضنه بقوة وأضاف:

- أراك على خير يا صديقي.

وافترق الرجلان كل منهما في طريق مختلف عن الآخر.

***

اتجه آدم نحو برج بابل الأسطوري الذي يقع على تل في وسط المدينة ويحتل موقعًا مربعًا كبيرًا ويحيط بيه سور حجري. كانت

قمة البرج شاهقة جدًا تكاد تخترق بطن السماء وتحجب نور الشمس. المدخل واسع يزينه زوج من الأعمدة الفضية المتشابهة وستارة حريرية مطرزة بألوان تجمع ما بين اللونين الأزرق والأبيض. أمام البوابة تنتصب شجرة بلوط عملاقة عمرها يتجاوز الـ 100 عام. وقف آدم عند قاعدة الشجرة وتطلع إلى الأعلى، لم يستطع أن يرى السماء بسبب ورقها الأخضر الكثيف.. تقدم بضع خطوات إلى الداخل.. توقع أن تكون هناك حراسة أو شيء من هذا القبيل لكن لا أحد.. ظل ينادي بطريقة عشوائية لكن النداء كان ضعيفًا لأن حلقه جاف ومعدته فارغة من الطعام منذ أيام.. عبر ممرًا طويلًا تتوزع فيه الأعمدة على كلتا جانبيه، ثم صعد درجات سلم حجري مفروش بنسيج حريري احمر، حتى وصل إلى رواق واسع له سقف منخفض من الذهب الخالص..

حين أوشك آدم أن يخرج من الرواق لمح بالصدفة شعاعًا رفيعًا وامضًا كأنه نجمه متألقة تنفذ من ثغرة في الحائط. أدرك أن هذا قد يكون مدخلًا خاصًا لغرفة سرية.. تحسس الحائط بحذر حتى شعر أنه يتحرك معه فدفعه برفق وزحزح الجدار إلى الداخل بلا صوت.

وجد آدم نفسه في غرفة رمادية اللون، الأرض مكسوة بالرخام المصقول.. المكان بارد وهادئ.. الهواء له رائحة جميلة.. وفي منتصف الغرفة يوجد مقعد هائل بمساند ذهبية منقوشة ويشبه عرش من عروش الملوك.

تلفت آدم حول نفسه يمينًا ويسارًا وأخذ يتأمل المكان.. سكون غريب.. لا يوجد أي مخلوق لدرجة أنه ظن أن البرج مهجور لا يسكنه

غير الجن والشياطين.. كان محقًا بدرجة كبيرة لكن الأمر لم يكن كما توقع في الحقيقة لأنه في تلك اللحظة سمع صوتًا غامضًا واخترق هذا السكون ضحكة جافة متقطعة وظهر له الأمير.. أمير العفاريت!

***

مشى أمير العفاريت ببطء نحو المقعد ذي المساند الذهبية بخطوات مكتومة فوق الرخام الأبيض.. كان طويل القامة بارز الخدين يمسك في يده عصاه لها مقبض عبارة عن جمجمة بشرية.. يلبس رداءً أسود يعلوه مئزر أحمر ويضع على رأسه تاجًا رقيقًا.. جلس على المقعد واستكان، وراح يطوف بنظره فوق وجه آدم كأنه يقرأ كتابًا مفتوحًا، ثم هز رأسه وقال بصوت أجش:

- سعيد بلقائك يا.. كاهن الرب.

- وأنا كذلك يا.. أمير العفاريت.

- اسمي الحقيقي (هازارد).. لكن هل تعلم لماذا يطلقون عليَّ لقب أمير العفاريت؟

هز آدم رأسه نافيًا:

- في الحقيقة لا.

قال هازارد:

- البداية كانت حين تعلمت سحر (المانزازو) من خلال الألواح القديمة التي كتبها الأشوريين لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لي.. أردت أن أتعلم السحر القديم الذي كان يستخدمه الملك النمرود،

حيث أن النمرود تعلم السحر على يد الملكين (عزازيل) و(شمهازي).. لكن المشكلة أن النمرود مات منذ سنين وتم تدمير كل علمه لهذا فكرت كثيرًا حتى توصلت إلى فكرة مخيفة وهي أن أستدعي (عفريتة) الفاتنة (إنانا) عشيقة النمرود وكاتمة أخباره. وعندما قمت باستحضارها استطعت من خلالها معرفه أسرار سحر النمرود وانتشر الخبر في بابل حتى لقبوني باسم أمير العفاريت.

- يليق بك..

مال هازارد نحوه وقال بثقة:

- أعلم هذا.

تطلع إليه آدم طويلًا قبل أن يسأله:

- لماذا لم تبدُ متفاجئًا من قدومي..؟!

أجابه هازارد بابتسامة عريضة:

- هذا لأني كنت في انتظارك!

أحس آدم أن خيوطًا غير مرئية تجذبه إلى هازارد.. تحرك بضع خطوات إلى الأمام حتى تقلصت المسافة كثيرًا بينه وبين هازارد الذي أكمل كلامه:

- أنت أملنا الأخير يا آدم.. معك وحدك ستبقى كلمة الرب.

سرت قشعريرة في جسد آدم وهتف:

- ماذا عليَّ أن أفعل؟

قال هازارد وهو ينهض:

- ثمة سر عظيم.. سر لا يعرفه إلا قلة من المختارين.

شعر آدم أن عين هازارد الرماديتين تفيضان بقوة مجهولة تتحكم به، وجاهد لكي يسأل:

- أي سر..؟

ابتسم هازارد وأحاط وجه آدم بيديه وقال:

- الآن.. وفي هذه الساعة ستعرفه أنت أيضًا.

ثم خفض صوته كأنه يخشى أن يسمعه أحد وبدأ يتحدث ببطء ويضغط على كل حرف من كلماته بينما راحت عين آدم تتسعان.. وتتسعان.

الفصل الثاني عشر

ليلة طويلة

الوقت الحالي..

ضغط آدم على صدغه وهو يعيد قراءة هذا الخبر:

أظهرت أبحاث جديدة أنه في اللحظات الأخيرة قبل الوفاة يتم حدوث استرجاع سريع للذاكرة داخل عقل الإنسان وكأن كل ذكريات الحياة تمر أمام الميت قبل خروج روحه. ظل لمدة نصف ساعة وتلك المعلومة والفكرة تطرق رأسه.. الموت.. هل يكون الحل لاستعادة ذكرياته ومعرفة ماهيته الحقيقة، هو الاقتراب من حافة الموت؟

كل مساء كان يجلس في غرفته يفكر ويحاول أن يبحث عن إجابات.. يبذل كل ما يستطيع من طاقته ومع ذلك لم يصل إلى شيء. هناك باب مغلق في عقله.. باب كلما اقترب منه شعر بطاقة هائلة تدفعه بعيدًا عنه وكأن هناك من يريد أن يظل ما وراء ذلك الباب مجهولًا.. الباب يحوي السر والذكريات.. يحوي كل شيء لا شك في ذلك. فقط لو يستطيع بطريقة ما أن يفتحه ويدخل. وفكرة الاقتراب من الموت تبدو معقولة. خطيرة جدًا لكنها معقولة.. وأيضًا هي تناسبه.. لكن بعد مدة نجح في إقناع نفسه بخطأ تلك الفكرة.

خرج من الغرفة وسار باتجاه الحمام ووضع رأسه مباشرة تحت رشاش الماء ثم خرج وهو يمسك صدغه. كان يشعر بصداع قوي يضغط على جمجمته بعناد شديد.. كان يحتاج بشكل عاجل إلى

تناول أقراص الأسبرين مجددًا.. نبش في درج غادة الخاص ولكنه لم يعثر فيها على أي ما يريد.. فقط وجد بعض أدوات التجميل الخاصة وفي ركن غير واضح شاهد شريط حبوب رمادي اللون.. تذكر تلك الحبوب.. كان معها وهي تشتريها من الصيدلية القريبة من المنزل. يومها قال الصيدلي على سبيل المزاح أن قرصًا واحدًا يكفي كي يجعلها تنام نومًا عميقًا، أكثر من ذلك به خطورة على حياتها وأن الجرعة لا ينبغي أن تتجاوز 3 حبات مهما كانت الأسباب أو الدوافع.

ألقى نظرة على ساعة يده.. كانت تشير إلى السادسة مساءً.. خمن أن غادة في طريقها للعودة الآن من العمل.. الحبوب في يده وأمامه ساعة كاملة حتى تصل غادة.. فكر ووجدها فرصة مناسبة. أحيانًا يدفعك شيء غامض إلى اتخاذ قرار ما ويطوع لك الظروف من حولك وفي لحظة خاطفه تجد نفسك أمام لحظة مصيرية. وضع آدم خمسة أقراص داخل فمه لكن قبل أن يبتلعهم تردد وسمع همسًا خافتًا في أعماقه يطلب منه التراجع.. لم يستغرق تردده غير لحظة واحدة وعاد يسمع صوت يصرخ داخل عقله:

- اللعنة على هذا العالم.. افعلها.

وابتلع الأقراص دفعة واحدة.. تدريجيًا بدأ يشعر بدوار شديد وبخربشة أظافر نحاسية في معدته، حاول أن يصرخ من الألم، فتح فمه فلم تتجاوز الصرخة حلقه، دار كل شيء من حوله واكتست الزرقة جدران الغرفة، شهق شهقة قوية ثم سقط على الأرض وساد الصمت إلا من صوت تنفسه الضعيف جدًا.

***

أوقفت غادة سيارتها على ناصية الشارع ولم يفت عليها ملاحظة تلك السيارة السوداء التي تقف على الناصية الأخرى. لمدة شهر كامل ولديها شعور أن هناك دائمًا من يراقبها.. حاولت أن تمحو تلك الأفكار من عقلها وصعدت إلى سلم العمارة الضيق في سرعة.. كانت تشعر بالكثير من التعب والإرهاق وخصوصًا أن الساعة قد تجاوزت الثامنة.. تأخرت اليوم ساعة كاملة عن ميعاد وصولها إلى المنزل بسبب حركة المرور التي كانت تسير ببطء شديد لدرجة أن حركة الطريق توقفت في كثير من الأوقات.. كانت هناك بعض المظاهرات في الليلة الماضية.. مسألة استنساخ كاهن أثارت حفيظة المتشددين دينيًا رغم أن الدكتور (هاشم) رئيس فرع المنظمة في مصر خرج في بيان وأعلن أن كل ما يثار حول هذا الموضوع هو مجرد إشاعات، وبدورها قامت الحكومة بإجراء تفتيش واسع ودقيق على أنشطة المنظمة وخرج التقرير أكد صحة كلام هاشم، إلا أن دعوات التظاهر والاحتجاج لم تتوقف وسط تعتيم إعلامي كبير.

دفعت غادة باب الشقة وتحركت إلى الداخل.. نادت في هدوء:

- آدم..

لا مجيب!

كررت نداءها مرة ثانية، ومع المرة الثالثة اندفعت تتحرك بسرعة بين الغرف:

- آدم.. أين أنت؟

- أنا هنا..

جاء صوت آدم مبحوحًا من أحد أركان الصالة.. التفتت غادة فلم تستطع أن تشاهده في البداية بسبب الظلام الغريب الذي يجثم في الركن قبل أن يتحرك آدم إلى الأمام فظهرت ملامح وجهه.. كان شاحبًا تمامًا ويرتدي معطف جلد أسود فضفاض.. قالت غادة في قلق:

- أنت بخير؟

هز رأسه:

- لا داعي للقلق.

اقتربت منه:

- لا.. أنت تخفي شيئًا ما.. تحدث معي.. أنا أمك.

حاول أن يبتسم:

- هل أنت واثقة؟

احتقن وجهها:

- على الأقل أنا أعتبر أنك ابني.

قبل جبينها في أسف وتهدج صوته:

- أعتذر لك.. لم اقصد قط أن أجرح مشاعرك.

هزت رأسها وحاولت أن تبدو مرحة وقالت:

- أخبرني الآن.. لماذا كنت تجلس في الظلام؟

أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- مجرد تجربة فاشلة حاولت من خلالها أن أستعيد ذاكرتي.

- والنتيجة؟

عبرت ابتسامة خفيفة على وجه آدم وأجاب على الفور:

- أخبرتك.. أنها فاشلة!

ثم رفع وجهه ونظر إلى سقف الغرفة في ألم:

- أنا أعيش في فوضى رهيبة.. من أنا وماذا يحدث لي؟

قالت بصوت مرتفع:

- ولماذا تهتم بذلك؟

- أخشى أن حياتي تعتمد على هذا.

وضعت يدها على كتفه في حنان:

- آدم.. صدقني أنت إنسان طيب.

نظر في وجهها دون أن ينطق أي حرف فأضافت قائلة في إشفاق:

- ومع ذلك أحيانًا يتعرض الطيبون إلى الضربة الأقوى.

قال آدم وهو يتحرك نحو باب الخروج:

- أحتاج أن أكون بمفردي بعض الوقت.

***

نفس الليلة وعند إحدى التقاطعات توقف أتوبيس نقل عام يكاد ينفجر من كثرة الركاب.. ألقت (هالة) نظرة سريعة على ساعتها.. نصف ساعة ولم يتزحزح الأتوبيس خطوة واحدة.. شيئًا فشيئًا أوشكت على أن تحطم رأسها على النافذة التي بجوارها بسبب نفير السيارات الذي لا ينقطع.

- هل تنوين أن تغادري.

التفت بتؤدة تجاه هذا الصوت المنخفض.. كان صوت فتاة شابة شاحبة الوجه تحاول السيطرة على وقفتها وسط الزحام ومن وراءها يلتصق بها شاب شعره مجعد ويضع خواتم من الفضة في كل إصبع من أصابع يده..

نهضت هالة من مقعدها وقد فهمت ما تمر به تلك الفتاة وأزاحت لها مكانها وهي تقبض على حقيبتها:

- نعم.. أشعر بدوار في الرأس ولم أعد أطيق البقاء.

أسرعت الفتاة تحتل المقعد وهي تتنهد في ارتياح، وفي نفس الوقت انفتح باب الأتوبيس بصخب. نزلت هالة بعد أن قررت أن تخوض المسافة المتبقية لمنزلها سيرًا على الأقدام. كانت في العشرينات من العمر مع أن مظهرها يوحي أنها لم تتجاوز العشرينات. ملامحها رقيقة، خفيفة اللحم والشحم.. منذ عامين غادرت منزل زوج أمها واستقلت بنفسها.. ومثل آلاف من الفتيات غيرها وجدت نفسها داخل بوتقة مجتمع لا يرحم أو يتسامح مع فكرة أن تعمل

وتسكن بمفردها.

فكرت أن تستخدم طريقًا مختصرًا من أجل العودة. سوف تصل بعد ساعة على الأكثر.. مدة ليست بالقليلة لكنها غير متعجلة كما أن تلك الليلة تبدو جيدة وصالحة للمشي.

***

في الشارع لم يكن آدم يدري إلى أين يذهب.. لم يكن يعرف عما يبحث أو ماذا يريد.. في رأسه تختلط الأشياء كلها وتتراقص أمام عينيه أضواء المدينة فتبدو كوحش هائل يبتلع كل ما حوله.

الطقس إلى حدٍ ما بارد وبدا ضباب رمادي يتناثر في الأرجاء وسط الهواء الرطب المحمل بعوادم السيارات. توقف أمام بائع جرائد واشترى مجلة ومضى يقرأها وهو يكمل مسيرته دون أن يعلم إلى أين هو ذاهب.. كان العنوان مشوقًا جدًا (الإنسان الزوهري).. ووفقًا للكلام المكتوب الإنسان الزوهري مخلوق مميز يستطيع أن يتواصل مع العالم السفلي ويتم استخدامه لاستخراج الكنوز من تحت الأرض ويعتبر دم الزوهري في عالم الجن بمثابة الزئبق الأحمر في عالمهم. فرك آدم عينه وقال في نفسه:

- هذا هو الضلال.

في نهاية المقال كان توجد صور لأطفال زوهريين أعمارهم تتراوح بين خمس وست سنوات تم التضحية بهم لإرضاء الجن.

اكفهر وجه آدم وظهرت عليه علامات الألم والحزن كما لو أنه

يعيش مشاهد القتل. شاهد كل الأطفال الموجودة صورهم بينما يتم اقتيادهم وذبحهم على أعتاب المقابر والأضرحة. ثم رمش بعينيه وتبددت الرؤية التي كانت تستبد بخياله. انجذب آدم إلى شارع واسع وتجول لمدة عشر دقائق بين صفوف المحلات الموجودة هناك، أصابه الأمر بالإحباط والاكتئاب، باعة الأدوات الصينية، محلات الوجبات السريعة، دخان أحجار الدخان والشيشة في المقاهي، ازدحام شديد في كل ركن وأكوام من القمامة تتكدس هنا وهناك، أمام المطاعم ومداخل المنازل والعمارات، المدينة تتعفن كفاكهة قديمة ويفسد كل ما يلمسها، تئن بالكامل تحت وطأة الروائح النتنه والرجال الفاسدين و...

انتزعه ضجيج من تفكيره ودون سابق إنذار تصاعد صخب حاد ومشوش ممتزج بأصوات مفرقعات نارية وصفارات إنذار عالية وعربات شرطة.. امتلأ الشارع بالمتظاهرين والهتافات المناهضة للحكومة وتدعو للثورة..

استعرض آدم في ذهنه البرامج الإخبارية ومشاهد القتل والتدمير.. هذا عالم يحتضر ويوشك على الانهيار من جميع الجوانب.. جحيم بشري لا نهاية له لم يعد يفهمه. انتابته رغبة ملحة في أن يبتعد وينعزل.. كان في حاجة ملحة إلى الانغماس في أحضان الرب لكي يغسل روحه ويطهر نفسه من رجس العالم الذي يحيط به على أمل يرتاح وينعم بالهدوء.

تحت تأثير غضبه غاص بين حشد المتظاهرين وموجة الاعلام واللافتات محاولا العبور إلى الناحية الأخرى. أحتاج إلى ربع ساعة

كاملة حتى نجح بشق الأنفس وما أن أصبح حيث أراد شعر أنه قد ربح معركة صغيرة انتصر فيها على الشر وسار مدة داخل الحواري العشوائية حتى اختفت وتلاشت أصوات الضجيج.

***

اجتازت (هالة) بضع حواري ضيقة وبعد نصف ساعة شعرت أن أقدامها توشك على التجمد ومعدتها تتلوى من الجوع. وأعدت نفسها بمشروب ساخن وبعض قطع الفراخ المقلية التي تحتفظ بها في الثلاجة من بقايا وجبة الغدا. كانت حركة السير في تلك الشوارع الجانبية التي تخوض فيها قليلة جدًا، ورغم أنها ليست المرة الأولى لها التي تمر من هنا لكن هذه المرة الشوارع بدت مقفرة وغارقة في الظلمة.

- أهلًا..

أطلقت هالة صرخة مذعورة.. كان قد انبثق أمامها شاب كئيب الملامح يمسك سلاحًا أبيض.. نفس الشاب الذي رأته في الأتوبيس.. يبدو أنه قد تتبعها وتحين فرصة وجودها هنا ليضرب ضربته.. ابتسم في جذل وقد تيقن من أنه قد أحكم خطته، ففاحت منه رائحة قذرة وظهرت أسنانه المنخورة بفعل التدخين.. قال في غلظة:

- الحقيبة.

تجمدت للحظة وهي تنظر إلى السلاح الذي يقترب من عنقها.. عاد يصرخ فيها:

- هيا.. ليس أمامنا الليل كله.

أسرعت تناوله الحقيبة وهاتفها المحمول وهي ترتعش.. تفحص حقيبتها الصغيرة وأخرج منها كل النقود ووضعها في جيبه ثم ألقى الحقيبة بعيدًا ونظر إليها. مد يده وانتزع بقسوة السلسلة الذهبية التي تحيط عنقها.. أغمضت عينيها وهي تحدث نفسها قليلًا:

- كل هذا سينتهي.. لا شيء يدوم للأبد.

اعتادت أن تفعل ذلك حين كان زوج أمها يقترب منها ليلًا.. كان يكتفي باختلاس بعض القبلات واللمسات دون أن يعبث في أشياء قد تفضحه.. حدثت نفسها مرة أخرى:

- كل ما يريده هو النقود وسيغادر بعد أن يحصل عليها.

لكن حين فتحت عينيها كان المجرم لا زال موجودًا وينظر إلى نهديها في جوع ولذة. جذبها من يدها وهي منقادة له دون مقاومة تذكر كأنها منومة مغناطيسيًا.. ألقاها أسفل مدخل أحد المنازل المهجورة وشاهدته وهو ينتزع حزام بنطاله ويقترب منه.. توشك قصتها في الحياة أن تنتهي نهاية حزينة.. سمعته يقول في وحشية:

- لا تخافي.. سوف نستمتع سويًا.

في تلك اللحظة أفاقت مما كانت فيه.. ركلت المجرم في معدته لكن قوتها لم تكن كافية لكي تجعله يتراجع.. ضرب رأسها في الأرض كأنها حبة جوز هند فشعرت أن كل شيء يدور من حولها بسرعة لا نهائية ولم تشعر إلا بيده وهي تنتزع جزءًا من ثيابها، وفي محاولة

يائسة أطلقت صرخة هادرة ثم أظلمت الدنيا في وجهها.

***

حين استعادت هالة وعيها كانت ما تزال في مكانها كما هي.. للحظة بدت المشاهد من حولها مهتزة ثم لم تلبث أن لاحظت وجود بعض نقاط الدم مبعثرة هنا وهناك.. التفتت فشاهدت (آدم) يقف بثبات وأسفل قدمه المجرم ملقى بلا حراك فاقد الوعي ووجهه ملتصق بالأرض..!

اقترب منها (آدم) وقال بصوت مطمئن هادئ:

- أنت بخير؟

تفرست في ملامح وجهه ذو القسمات الحادة وقالت في توتر:

- بخير.

وأضافت بصوت مبحوح:

- من أنت..؟

انحنى باتجاهها ومد لها يده يحاول أن يساعدها على النهوض:

- اسمي آدم.

أشارت على المجرم وسألته في فضول:

- ماذا فعلت به؟

أجاب بهدوء:

- شيء بسيط سوف يجعله يفكر بعد ذلك ألف مرة قبل أن يتعرض لفتاة جميلة مثلك.

حدقت في وجهه بدهشة ثم لم تلبث أن ارتسمت على شفتيها ابتسامة، لكن مجرد أن انتصبت واقفة وتحركت خطوة واحدة أمسكت رأسها وكادت تسقط.. أسرع آدم وأسندها.. قال:

- هل تودين أن أرافقك؟

احتاجت بضع ثوان قبل أن ترد:

- نعم.. أشعر بدوار في الرأس

تطلع إلى عينيها مباشرة وقال:

- حسنًا.. إذا كان هذا ما تريدينه.

***

تلفت آدم حول نفسه وهو يتأمل شقة (هالة) من الداخل.. الشقة تبدو مريحة جدًا، وبها أثاث بسيط وجميل.. قال:

- مكان لطيف.

ابتسمت وأخرجت من الثلاجة زجاجة عصير وصبت منها في كوبين:

- في الحقيقة قد أتركه قريبًا.

أخذ الكوب من يدها وسألها:

- لماذا..؟

أسندت ظهرها على الحائط وقالت:

- الإيجار مرتفع بعض الشيء.

بدافع الفضول تفحص آدم اللوحات المرسومة على الجدران.. لفت نظره لوحة كبيرة لشجرة خضراء قاتمة.. قال:

- رسوماتك..؟

ابتسمت ثم أجابت وهي تشير على طاولة فوقها ألوان وفرشات كثيرة:

- مجرد هواية من أجل تمضية الوقت.

دقق النظر في الرسومات:

- أراها جيدة جدًا.

تحدثا قليلًا حول الفن ثم تغير مجرى الحديث بعد ذلك وصار متشعبًا.. تحدثوا عن السينما، الرياضة، السحر، العالم الآخر، الشعوذة، والأرواح.. أخبرته عن زوج أمها الذي كان موته بالسكتة القلبية داخل السجن بمثابة عدالة السماء.. كانت هالة متحمسة لكل شيء يخطر على بالها.. كان لديها تفاوت في الآراء تبعث على الضحك.. بدا له وجهها مشرقًا مضيئًا تكسوه حمرة الدم.. جمالها جعل آدم يشعر بالهدوء والراحة النفسية.. شفتاها تتحركان ولم يعد يعرف هل ما زالت تتحدث معه أم أنها تهمس بشيء ما.. استرسلت في الحديث عن نفسها وعن حياتها. كان يلوذ بالصمت ويكتفي بالتعبير بقسمات

وجهه.. وفجأة اخترق كل ذلك ضحكة.. ضحكة جميلة أطلقتها هالة ثم قالت:

- أين ذهبت؟

نفض عن نفسه شروده وقال مبتسمًا:

- ما زلت هنا.

لم تعقب على كلامه.. لبثت صامتة كأن لم يعد هناك ما يقال.. اتجهت إلى النافذة وجذبت الستائر وأسدلتها.. التفتت نحو آدم وابتسمت له.. حاصرها بنظراته من كل جانب كأنه يخشى أن تهرب منه.. مشدودًا إليها اقترب منها وبلطف داعب خصلة من شعرها الأسود الطويل.. شعر ناعم حريري.. ببطء حرر أزرار فستانها.. رأى نصفها العلوي عاريًا قاسيًا لا يرحم.. تحررت من ملابسها وتركت الفستان ينساب ويسقط تحت قدميها.. بدت أمامه مثل زهرة بيضاء متفتحة تفوح منها رائحة الرغبة.. تنبض وتخفق بالحياة.. بشرتها حريرية الملمس.. صدرها يستجدي منه الرأفة.. ارتعش جسدها حين لمسها.. شعر بالتوتر.. شحب وجهها.. أراد ان يتراجع لكنها جذبته نحوها.

***

ارتفعا حاجبا (نجيب) ثم انخفضا قبل أن يقول:

- حسنًا.. استمر في المراقبة.

أنهى المكالمة وبينما ينطلق بسيارته عائدًا إلى منزله راح عقلة

يسترجع المكالمة التي دارت بينه وبين قائد فريق مراقبة آدم منذ قليل.. أخبره أن آدم خرج من شقة غادة في وقت متأخر على غير العادة.. كان يتصرف بطريقة غريبة غير متزنة ويسير بسرعة كأن هناك قطار يريد اللحاق به.. ثم قادته الظروف إلى العبور من وسط إحدى المظاهرات العابرة.. تسبب ذلك في جذب تركيز أحد رجال الأمن على آدم وقد اعتقد أن آدم أحد مثيري الشغب بسبب منظره غير المهندم وملامحه التي تنم عن عدم ارتياح. كاد رجل الأمن ان يقوم باعتقال آدم لولا أن تدخل فريق المراقبة في اللحظة المناسبة.. الآن رجل الأمن فاقد الوعي ولن يستيقظ إلا بعد انتصاف نهار اليوم التالي وسيجد نفسه داخل إسطبل خيول.

فيما بعد حدث موقف مثير للاهتمام.. آدم كان في حالة خيار كشف الكثير من شخصيته حيث شاهد مجرم يحاول اغتصاب فتاة مسكينة. نسبة لا بأس بها من الرجال كانوا سيغضون البصر عما يحدث ويكملون طريقهم وخصوصًا إن المجرم كان يحمل سلاحًا إلا أن آدم تدخل وتغلب على الرجل وأنقذ الفتاة.. حتى الآن تظل طريقة تغلبه على المجرم مجهولة.. رجال المراقبة يقولون أن الضباب انتشر بغتة وحين انقشع كان المجرم ملقى على الأرض.. الجميل بعد كل ذلك أن آدم وافق على إيصال الفتاة إلى المنزل وحتى تلك اللحظة ما زال معها والاحتمال الأقرب هو أنه يمارس معها الحب الآن.

استقبل نجيب هذا التقرير وشعر لبعض الوقت بالاندهاش قبل أن يستوعب أن آدم في النهاية رجل ويحتاج لإشباع بعض غرائزه الأساسية.. ربما كان هذا هو الشيء المفقود منذ البداية.. أن يتم

معاملة آدم على أساس أنه شخص عادي. الآن بدأ يفهم بعض الشيء فائدة وأهمية أفكار هاشم خصوصًا أن ما تم إنجازه مع آدم خلال بضعة أشهر كان قد يستغرق سنوات داخل المعمل.. صحيح أنه وحتى تلك اللحظة ما زال يشعر بكثير من عدم الارتياح بخصوص فكرة استنساخ كاهن لكن بالنظر إلى الفوائد التي سوف تتحصل عليها البشرية فإن الأمر يستحق. صار متلهفًا للحظة التي يتم إخبار آدم فيها بحقيقته وإعلان وجوده لكل الناس.

عند تلك النقطة أعاد نجيب تركيزه على الطريق وابتسم. فجأة انتفض جسده كله في عنف وكاد أن يفقد السيطرة على عجلة القيادة وهو يحدق في مرآة السيارة الداخلية.. فهناك وعلى المقعد الخلفي كان يجلس رجل أنيق الملبس له وجه مألوف جدًا.. كان (إفريقيا).

الفصل الثالث عشر

حزقيال

قبل الميلاد..

كان ذلك مساء يوم بارد وقد سقطت الثلوج بكثافة خلال فترة النهار وغطت أجزاء كثيرة من الأرض، وفيما كان الظلام لا يزال حالكًا جلس آدم مع حزقيال يتبادلان أطراف الحديث اللطيف داخل منزل هذا الأخير، وفي نفس اللحظة تردد صدى خطوات آتيه من آخر المنزل.. فكر آدم في البداية أنه أحد الخدم ولكن مع اقتراب الخطوات أدرك أنها ليست خطوات رجل ثم دخلت عليهم امرأة، مدملكة القوام، ترتدي فستان رقيق من القطن يبرز تفاصيل جسدها وفي يدها صحيفة فوقها شراب بارد وكان ثمة وشاح حريري أبيض يتدلى فوق رأسها يخفي جزءًا من وجهها. انحنت قليلًا ووضعت الشراب على الطاولة أمامهم فتدلى شعرها الأسود على صدرها مثل الحرير. قال حزقيال وهو يشير عليها:

- زوجتي..

ارتفع حاجب آدم في دهشة وقال:

- لم أعلم أنك من الرجال الذين يفضلون الزواج

ضحك حزقيال:

- الطباع تتغير يا صديقي.. وماذا عنك؟ هل...

ابتسم آدم وقال:

- لا.. لم أتزوج.. لكن أخبرني كيف التقيت بها؟

تنهد حزقيال وقال:

- أنت تعلم أنه لا يوجد رجل هنا يوافق على تزويجي ابنته.. لديهم تلك العادات والتقاليد الخاصة بالأصل والنسب وكل ذلك الهراء.. لهذا ذهبت لسوف النخاسة وانتقيت أجمل وأحلى جارية وتزوجتها.. اسمها عائنة.. تقول أنها من أصول شرقية وتحفظ الكثير من الشعر وتجيد الغناء والعزف.

ثم صب كأس شراب بارد وقدمه إلى آدم وأضاف قائلًا:

- وتجيد أيضًا الأوضاع العشرة في المضاجعة.

ضحك آدم وقال وهو يرفع كأس الشراب إلى شفتيه:

- هنيئًا لك..

انتظر حزقيال حتى أنهى آدم شرابه ثم سأله:

- الآن أخبرني فيمَ جئت؟ لا تقل لي أن هذه مجرد زيارة من صديق قديم!

وضع آدم كلتا يديه على ركبتي حزقيال ونظر في عينيه جيدًا قبل أن يقول:

- جئت أدعوك لعبادة الرب.

شعر حزقيال بالسخط وهتف:

- تحدثنا حول هذا سابقًا وأنت تعلم رأيي جيدًا.. لماذا تكرر؟

قال آدم في هدوء:

- لأن هذا واجبي.. واجب الكاهن المخلص هو أن يردد كل يوم كلمة الرب حتى تنجلي الحقيقة وتذوب خطايا العالم.

- إذن دعني أسألك.. هل شاهدته؟!

- لا أفهم..

- أسألك هل شاهدت كبير آلهتك.. هل كلمته؟

هز آدم رأسه مجيبًا:

- نعم.. حدث.

قال حزقيال باهتمام شديد:

- صفه لي إذن!

شرد آدم ببصره قليلًا قبل أن يرد:

- أتذكر هذا اليوم وكأنه حدث البارحة.. يومها كنت في المنزل أبتهل للآلهة وكانت أشعة الشمس تسقط شبه عمودية على السقف الخشبي ويصل جزء من نورها إلى حيث أجلس. ثم وجدت ظلامًا هائلًا يحيط بي وكأن أحدهم قد سرق قرص الشمس. وعندما تعودت عيني على الظلمة بهر نظري فجأة ضوء قوي وتجسد من خلاله كبير الرب. ظهر على هيئة رجل صارم الملامح يجلس فوق عرش ضخم من الزمرد.. كنت أنظر إليه ذاهلًا.. شعره ولحيته

الطويلة يسقطان على صدره ووجهه كأنهم شلال نهر.. فوق رأسه تاج مرصع بالأحجار الكريمة، وفي يده اليمنى صولجان منقوش، وفي اليسرى كتاب ضخم مختوم بالذهب.

ضحك حزقيال:

- يا لها من أعجوبة! ومع ذلك قد أعتبر أن ما حدث لك عمل شيطاني أو سحر.

- يمكنك أن تقول أنه سحر.. لكن السحر نوعان.. سحر من عمل الشياطين.. وسحر آية من آيات الرب.. أو معجزة إذا شئت أن تطلق عليها.

- ولماذا اختصك بها أنت بالذات؟

صمت آدم لحظة ثم قال في حزم:

- تلك يختص بها الرب من يشاء.. الرب جواد ورحيم يا حزقيال.

- دعني إذن أخبرك عن جود ورحمة الرب التي أعرفها.. قبل أعوام طويلة لم أكن الرجل الذي أمامك الآن.. كنت أعيش في (كيميت) الأرض السوداء التي يحكمها الفرعون العظيم حتى أتى من قال أنه كاهن مثلك وعندها بدأت الحرب. قام الفرعون بجمع كل المؤمنين وتعذيبهم أشد العذاب.. شاهدت امرأة مؤمنة عارية مجردة من اللحم تنهشها الكلاب.. رأيت رجلًا لا حول له ولا قوة تمتصه الثعابين.. طفلة صغيرة يتم تمزيق أوصالها.. ألقوا المؤمنين في أقفاص مليئة بمسوخ كثيفة الشعر وحيات وثعابين وعقارب

ومخلوقات بشعة تشبه الإنسان.. وجدت وكأن كل زبانية الجحيم قد جاؤوا واجتمعوا ليصنعوا جحيمًا على الأرض.. الآن أخبرني أين رحمة الرب في كل ذلك؟

- الرب العظيم له خطط، وخطط الرب لا يستطيع من هم مثلك أن يفهموها.

هتف حزقيال في عصبية:

- هذا لأنه لا توجد خطط من الأساس.. الكون عشوائي.

صرخ آدم بحدة:

- لا تكفر يا حزقيال.

ثم صمت قليلًا محاولًا السيطرة على أعصابه قبل أن يضيف:

- منذ اليوم الأول فهمت أنك لن تؤمن، من صوتك، من الطريقة التي تتحدث بها حين أذكر أمامك اسم الرب.. للأسف اعتقدت أنك يومًا ما سوف تفهم.. سوف تؤمن.

لوح حزقيال بكفيه وقال:

- محال!

- افهمني جيدًا.. أنا أمنع أتباعي عنك بصعوبة لكن لن يستمر هذا طويلًا.. قد يحدث أن يفقد أحداهم أعصابه حين يراك وأنت تهين الرب ويحدث ما لا يحمد عقباه.. وطبعًا أنا وأنت لا نتمنى هذا.

- ليس من الصواب أن تأتي للرجل في منزله وتحاول تهديده.

قال آدم بلطف:

- أنا لا أفعل.. فقط فكر.

- وإلا..؟

عقد آدم حاجبيه وقال:

- وإلا ربما تكون في خطر دون أن تشعر.

غمغم حزقيال في عصبية:

- أنا لا أخشى الخطر لأنني الخطر بأم عينه.

ثم تحسس غمد سيفه وهو يضيف قائلًا:

- أم نسيت هذا..؟

- أنا فقط أنصحك.

أشاح حزقيال بوجهه تجاه الباب كأنه يطلب منه الخروج وقال بحزم:

- وقد فعلت.

ربت آدم على كتفه وقال في خفوت:

- لا تقف في طريقي يا صديقي القديم.. شئت أم أبيت سوف تسود كلمة الرب.

الفصل الرابع عشر

اضطراب

قبلة دافئة أيقظت آدم من غفوته القصيرة.. فتح عينيه ببطء وتمدد في كسل مبتسمًا ابتسامة راضية.. كانت هناك أغنية جميلة تبعث من مذياع صغير.. هالة ترتدي رداء حمام وردي فاتح وتلف رأسها بمنشفة وفي يدها كوب تتصاعد منه أبخرة ساخنة وتحرك خصرها مع كلمات الأغنية بكثير من الرشاقة والخفة.. كانت هي الأنوثة على هيئة امرأة.. مر شهر كامل على علاقاتهما. قال آدم وهو يعتدل في مكانه:

- يبدو أنني نمت دون أن أشعر.

ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تمد له الكوب:

- اشرب قهوتك قبل أن تبرد.

شكرها بينما جلست بجواره على السرير وداعبت شعر صدره العاري وقالت في غنج:

- هل تدرك ماذا صنعت بي؟

غمغم في فضول:

- ماذا صنعت؟!

أجابت في سرعة:

- الحب.

ثم أردفت ببطء:

- كنت أعتقد أن الحب لا وجود له.

- الحب موجود بالتأكيد.. أنا أومن بفكرة وجود توأم للروح.

أشعلت هالة سيجارة وأخذت منها نفسًا ثم ناولتها إلى آدم:

- من الجميل أن يكون هناك شخص قادر على جعلنا سعداء.. شخص نريد أن نعيش معه إلى الأبد.

ضحك:

- إلى الأبد!

وأردف وهو يسحب نفس عميق من السيجارة:

- الواقع يقول أن لا أحد يعيش إلى الأبد.

اعترضت:

- توقف عن العيش في الواقع.

ثم استطردت وهي تحتضنه:

- يكفي أن نعيش في الخيال.

أفلتت منه ابتسامة:

- أنت مجنونه خالصة.

رفعت وجهها نحوه وكأنها تذكرت شيء:

- آدم.. أريد أن أعرف عنك كل شيء.. تحدث معي عن ماضيك.

أشاح آدم ببصره وانقبضت شفتاه أما الابتسامة التي كانت منذ ثوانٍ على وجهه فقد تلاشت وقال:

- لا أريد..

- أنا أصر.. تكلم.

- لن تصدقيني.

نظرت في عينه:

- جربني.

صمت قليلًا ثم ولأكثر من ربع ساعة ومن دون نسيان أي تفاصيل بدأ يحكي لها كل شيء عنه، من عدم تذكر من يكون ومن أين جاء، مرورًا بلقائه مع غادة، وانتهاءً بالنمو الخارق وظهور إفريقيا، وهي تستمع له دون أن تقاطعه، وبعد أن انتهى بقيت لمدة طويلة صامتة ومصدومة إلى أن قالت:

- أظن أنك تختلق كل هذه الحكاية كي يمكنك هجري حين تشاء.. أليس كذلك؟

تجهم وجهه وقال بنبرة جافة:

- أخبرتك أنك لن تصدقين!

ونظر في ساعته:

- يبدو أنني تأخرت كثير.

ثم نهض وارتدى قميصه بينما نظرت إليه هالة في عينيه كأنها جهاز كشف كذب:

- آدم.. هل تقول الحقيقة حقًا؟

تجاهل الإجابة عن سؤالها وحرك يده في إشارة أنه لم يعد يود الحديث.. عادت تقول في قلق:

- ربما تحتاج إلى رؤية طبيب نفسي!

تجهم وجه آدم والتفتت إليها في غضب شديد:

- هذا امر غير وارد.

توترت:

- هذه أول مرة أراك فيها غاضب هكذا!

وأضافت في شيء من اللطف:

- آدم أنصت إليّ.. أنا معك ولست ضدك.

حرك آدم رأسه:

- أعرف هذا.. فقط أخشى أن يكون ما يحدث لي هو عقاب إلهي.

- تقول أن (إفريقيا) يزورك في كوابيسك.. ماذا يقول لك؟

صمت قليلًا قبل أن يقول:

- إنني هالك وإلى الجحيم ينبغي أن أعود.

***

ألقت غادة نظرة على ساعة يدها.. إنها الواحدة صباحًا.. تأخر آدم.. تأخر أكثر من اللازم.. منذ أن صارت هناك علاقة بينه وبين هالة لم يعد هو آدم الذي تعرفه.. في داخلها كانت تشعر بنوع من أنواع الغيرة وكانت تحاول أن تنكرها.. رغم ذلك هي محقة إلى حد كبير.. آدم تأخر أكثر من المعتاد!

بعد مدة سمعت صوت خطواته ثم تحرك الباب وشاهدته وهو يدخل صامتًا على غير العادة.. نادت عليه في قلق:

- آدم..

قال وهو يتجه إلى غرفته ويتجنب النظر إلى عينيها:

- آسف على التأخير.

اقتربت منه وقد لاحظت تغير ملامح وجهه:

- ماذا حدث..؟

ومدت يدها تريد أن تستوقفه لكن المشهد تبدل من حولها في لمح البصر ووجدت نفسها تحتضن الفراغ ومن حولها تلال رمال حمراء وصحراء قاحلة ممتدة إلى ما لانهاية.

شعرت بخوف وحشي يمزق أحشاءها وهي تدور حول نفسها بسرعة بالغة.. كل شيء أيضًا يدور معها وكأنها وسط رحى طاحونة

تعمل بأقصى طاقتها.. اختفى منزلها.. عالمها كله تلاشي بلا أثر.

- ماذا حدث وكيف انتقلت إلى هنا؟

ظلت تسأل نفسها بمزيج من الذهول والحيرة.. التفسير الوحيد هو أنها فقدت الوعي وأن كل ما يجري هو مجرد حلم أو كابوس دقيق التفاصيل سوف تستيقظ منه.. عليها أولًا أن تبلغ نهايته.. لا يوجد كابوس بلا نهاية.. بالتأكيد آدم بجوارها الآن يحاول أن يوقظها.. المسكين لا بد أنه يشعر الآن بارتياع وذعر.. تتخيله يبكي وينادي الجيران لكي ينقذوه.. سوف تستيقظ من الكابوس وتعود له.. لن تتركه يعاني أكثر من هذا.. نظرت إلى الصحراء في تحدٍ وصرخت لكن هبت فيها ريح ساخنة جعلت الرمال تتطاير وترتطم بوجهها كرصاصات متناهية الصغر.

فكرت أين تتجه.. لا توجد علامة ترشدها للاتجاه الصحيح أو إلى أين يتوجب عليها أين تذهب.. الصحراء تحيط بها ولا توجد إلا أطنان من الرمال وجبل شاهق من الارتفاع، وفي الأعلى يوجد غراب يحوم في الأجواء فوق رأسها مباشرة، يستمر في النعيق وكأنه ينتظر قرارها ونتيجة اختيارها.

ترددت قليلًا ثم اتخذت قرارها واتجهت نحو الجبل.. ماذا ستجد.. لا يهم.. سوف تستمر في السير حتى تصل وتصعد إليه.. سارت بصعوبة وسط الرمال الساخنة لتكتشف أنها تسير بلا حذاء لكنها تحملت واستدعت كل الصبر والجلد الذي لديها.. سوف تستمر في السير إلى أن تستيقظ أو تصل إلى الجبل.. سوف تصعد إلى

أعلى وتلقي نفسها.. ستستيقظ عندئذ.. تعلم جيدًا أن العقل الباطن لن يسمح لها أن تموت في الحلم.. هي تراهن وتلعب لعبة تحمل مخاطرة.. لا شيء مضمون. هذا ما كان يجب أن تعلمه وهي تختار مصيرها.

بدأت تشعر بالعطش الشديد وازدحم وجهها وجبينها بقطرات العراق الباردة.. سقطت عدة مرات ونهضت بإصرار..

صار لديها شك أن كل ما يجري حقيقي وليس مجرد كابوس.. لا يوجد كابوس بمثل تلك الدقة والتفاصيل والأحاسيس.. هل تكون انتقلت إلى هنا بطريقة ما..؟ سؤال لا تملك إجابته.. كل ما يجب أن تفعله الآن أن تواصل مسيرها الطويل الذي يبدو أنه بلا نهاية.. الغراب من فوقها ينعق ثلاث نعقات كأنه يشد من أزرها ويحاول تشجيعها..

في النهاية أصابه التعب الشديد ولم تعد قدميها قادره على حملها.. تهالكت على الأرض وارتمت على ظهرها وهي تلهث من التعب والعطش.. أغمضت عينيها في استسلام.. ماذا لو كان يجب عليها من البداية أن تستسلم.. أن تترك نفسها لمصيرها وقدرها..

ثم تغير كل شيء.. أحاط بها ظل كبير وشعرت ببرودة عجيبة في الجو ولامس وجهها قطرة ماء سقطت من السماء..

فتحت عينيها ببطء لتجد أمامها آدم على هيئة كهل عجوز يتجاوز عمره السبعين عامًا.. كان يمسك في يده عصاه لها مقبض على هيئة جمجمة بشرية ويحمل فوق ظهره جوال ممتلئ تتساقط منه الدماء

وتصنع من وراءه خيط أحمر مخيف، وكل خطوة يخطوها كانت تحرق الرمل والأرض..

حملقت فيه بمزيج من الذهول والرعب والفزع وصرخت:

- آدم..!

انحنى نحوها ثم همس في أذنيها بصوت حاد:

- النهاية ستبدأ قريبًا يا أماه

ثم ألقى الجوال عند قدميها فتساقطت منه رؤوس بشرية مقطوعة.. رؤوس جاحظة العينين تصرخ فزعًا..

وفي نفس اللحظة تغير لون السماء وصارت دموية قاتمة واهتزت الأرض وكأن زلزال ضرب المكان، وبدأت الرمال تتساقط إلى الأسفل ويبرز من خلالها ومن تحت الأرض جثث بشرية.. ملايين الجثث البشرية ملفوفة في أكفان رمادية بالية..

ومع كل لحظة تمضي كانت الجثث تزداد وترتفع فوق بعضها حتى صنعت جبل هائل بالغ الارتفاع والحجم.. ثم انهار جبل الجثث وبدأ الأموات يمزقون أكفانهم ويخرجون منها عراة وهم يطلقون صرخات مروعة ويهرعون في كل اتجاه بلا هدف، كأنهم يحاولون الهروب والاختباء من شيء ما.. نساء ورجال وأطفال وشيوخ..

ظهرت حفره صغيرة في جوف الأرض وراحت تتسع بسرعة بالغة وبدأ يتساقط فيها الأموات وهم مستمرون في الصراخ، والبعض منهم حاول أن يتشبث في أطراف الحفرة التي راحت تتسع

باستمرار ومع كل مرة كانت تبتلع وتأكل المزيد والمزيد من الناس..

داخل الحفرة كان يوجد بحر من النيران المشتعلة الهائجة تتحرك إلى الأمام وتندفع إلى الخلف وتقذف من وقت لآخر حمم بركانية رهيبة..

تعالت صرخات الناس أكثر، ومع استمرار سقوطهم استطاع بعضهم التعلق في جوانب الحفرة والصعود إلى أعلى في محاولة حثيثة للإفلات من المصير المحتوم لكن الحفرة أبت أن تتركهم وخرجت منها سلاسل حديدية عملاقة في نهايتها خطاطيف مشتعلة ومتوهجة وبدأت تضربهم وتتخطفهم وتلقيهم في بحر النيران.

- النهاية ستبدأ قريبًا.. عودوا إلى أحضان الرب

ظل آدم يكررها مرارا وتكرار بصوت جهوري وبلا لحظة توقف. بصعوبة صرخت غادة وهي تمد يدها نحوه:

- آدم.. ساعدني

لكن في اللحظة التالية زلت قدميها ووجدت نفسها تهوي في قعر حفرة النار.

***

- نارا!

شهقت غادة واستيقظت مذعورة وهي تصرخ بهذه الكلمة وفي نفس اللحظة اقتحم آدم الغرفة وهو يهتف:

- أمي.. أنتِ بخير..؟

كانت فوق سريرها ولا يوجد أي شيء غير طبيعي.. حملقت في وجه آدم واحتاج الأمر بضع ثوان لتتذكر ما حدث قبل أن تنطق:

- كابوس

جلس آدم على طرف الفراش وابتسم قائلًا:

- يبدو أن عدوى الكوابيس انتقلت لك

سألته:

- متى جئت..؟

- الآن فقط.. مجرد أن دخلت سمعتك وانتِ تصرخين

ترددت للحظة ثم سألته:

- كيف حالك مع هالة..؟

أجاب باقتضاب:

- الأمور تسير في مسار جيد

نظرت إليه في تمعن وقالت:

- لا أريدك أن تنحدر معها أكثر من ذلك

قال بنبرة جافة:

- أمي.. من فضلك لا تتحدث عنها هكذا

- لماذا..؟

- لأنني لا أريد أن أكرهك.. أنا أحبها

- الحب قد يؤذيك يا صغيري

في هذه اللحظة شعر آدم بضربة مطرقة في منتصف رأسه.. أغمض عينيه في قوة وانتابته رؤيا وحشية.. امرأة تهشم رأس رجل.. ذئاب تعوي.. قبور مفتوحة.. غيلان سوداء..!

صاحت غادة في قلق:

- آدم..؟!

فتح عينيه وظهر الألم في خطوط جبينه التي تضاعفت.. قال بنبرة مرهقة:

- نفس الصداع

- أعتقد أنك تحتاج إلى قسط من النوم

لم يحاول آدم الاعتراض.. متعبًا نهض من مكانه وأخبرها أنه سيذهب إلى غرفته ثم حاول أن يكون مرحًا فقال:

- كوابيس سعيدة.

ابتسمت بصعوبة وراقبته وهو يغادر.. تنهدت في عمق وأغمضت عينيها للحظة وهي تغمغم:

- نعم كوابيس سعيدة.

لكن أصابعها لمست شيئًا غريبًا جعلها تجفل في مكانها وشعرت بموجة باردة عبرت جسدها.. حركت جزء بسيط من الغطاء لتكتشف أن به آثار حروق.. ربما لم يكن ما مرت به مجرد كابوس..؟!

الفصل الخامس عشر

هجوم شيطاني

اتجهت هالة إلى المطبخ وأعدت لنفسها فنجان قهوة سوداء رغم أنها كانت تعلم أن هذه ليست فكرة جيدة خصوصًا أن الوقت قد تأخر وربما تذهب للنوم بعد قليل.. تذكرت أن آدم قد أخبرها أنها سوف يمر عليها تلك الليلة.. انتظرت مكالمته حتى شعرت بالضجر.. للمرة الخامسة تحاول الاتصال عليه بلا فائدة.. هاتفه المغلق كان يسبب لها المزيد من العصبية..

حملت القهوة وسارت باتجاه الصالة وفي طريقها رأت انعكاس صورتها على مرآة جانبية فتوقفت أمامها وحركت خصرها الذي يبدو جليًا تحت فستان أحمر شفاف له حمالات كتف رفيعة تتلاقى عند منتصف ثديها.. كان وجهها يزخر بكميات هائلة من الألوان ومستحضرات التجميل.. لم يكن هناك تناسق.. مجرد أشياء متضاربة جعلها تبدو مهرجة في فستان أحمر ساخن.. سوف يصاب آدم الذهول.. هذا ما حدثت به نفسها.. ضحكت وارتشفت جزء من القهوة فتركت شفاها بصمة صغيرة.. دندنت مع نفسها أغنية حديثة.. بلا شك لم يكن صوتها جميلًا في الغناء.. كانت أقرب للنشاز أو لضجيج محرك سيارة.. بعد دقائق سمعت صوت جرس الباب:

- من..؟

جاءها من الناحية الأخرى صوت هادئ:

- متجر (اللوتس) للزهور.

ابتسمت داخل نفسها.. كم كانت حمقاء حين ظنت أن آدم لن يأتي.. ها هو يرسل لها باقة ورد وربما كان في طريقة إلى هنا الآن.. أزالت سلسلة الأمان وفتحت الباب:

- حسنًا...

لم تكمل عبارتها.. فجأة طارت قبضة قاسية واصطدمت في وجهها سببت لها ألم هائل وأطاحت بها الوراء وألقتها أرضًا بلا رحمة.. دخل (نجيب) من الباب وأغلق الباب خلفه وسار نحوها.. صرخت في جزع:

- من أنت..؟

لم يرد عليها.. كانت ملامحه شريرة جدًا وعيناه زائغة كأنه في عالم آخر.. اقترب منها وقال بلهجة خالية من المشاعر:

- أين آدم..؟

تراجعت هالة إلى الوراء وهي تهتف:

- إنه ليس هنا.

ابتسم فظهرت أسنانه الأمامية مكسور:

- سوف أنتظره إذًا.

واقترب منها قائلًا بخشونة صارمة:

- عليه أن يموت.

استدارت هالة وركضت باتجاه غرفة النوم ووصلت بالفعل لكن قبل أن تغلق الباب خلفها استطاع أن يضع يده حائلًا بين الدرفتين ثم اندفع بكل قوته للداخل.. حاولت أن تهرب منه إلا أنه أمسك طرف فستانها من الخلف وجذبها بقسوة فتمزق الفستان بأكمله من الوراء وظهر لحمها عاريًا..

حركت يدها حركة عشوائية فأصابت عينه إصابة حادة جعلته عاجزًا عن الرؤية وشعر لحظتها أن عينه انفجرت بالدم. صرخ وأمسكها من شعرها وقبض عليها بقوة ثم جذبها ناحيته وأطلق قبضته في منتصف معدتها. شعرت أن قنبلة انفجرت في بطنها وبدأت تقذف الدماء من حلقها ثم راحت تسعل وتشهق بلا توقف حتى أوشكت على الهلاك وسقطت على الأرض.

ركلها نجيب في وجهها فسقطت عدساتها اللاصقة التي تضعها ثم أمسك بها وأوقفها على قدميها واعتصر عنقها وهو يصرخ:

- متى سوف يأتي؟

هزت رأسها بمعنى أنها لا تعرف.. اعتصر عنقها من جديد لدرجة أنها شعرت أنه سوف يكسره.. قالت بصعوبة:

- لا.. لا أعرف.

جحظت عينها وأوشكت أن تموت وفي اللحظة الأخيرة دفعها بعيدًا عنه فسقطت مجددًا على الأرض. شهقت في ألم وانهارت باكية والدم يسيل من وجهها ومن فمها ولم تعد تقوى على النضال..

زحفت بمرفقيها على الأرض وراحت تقترب من الباب في حركة يائسة وهي تئن من الألم والذعر الهائل وقد أيقنت أن هذا المجنون قد جاء ليقتلها ويقتل آدم.

حدق فيها بمزيج من التلذذ وثبت بصره عليها بنفس الطريقة التي يثبت بها الحيوان المفترس بصره على فريسته واقترب منها ووقف حائلًا بينها وبين أن تصل للباب.. تبدلت ملامحه للحظات وبدا أنه يعاني من اضطراب. صرخ وهو يمسك رأسه:

- إفريقيا.. أرجوك.. اخرج من عقلي.

لكن داخل عقله انفجرت قنبلة.. ومن وسط دخان القنبلة خرج إفريقيا.. لحظة ثم عاد يسيطر على عقل نجيب. تحرك نجيب وأمسك كرسيًا خشبيًا وجلس عليه أمامها.. بكت هالة بحرقة:

- أرجوك.. أرجوك.. أنا...

لطمها على وجهها:

- أنصتي إليّ جيدًا أيتها النجسة..

أومأت في خوف وهي تنظر إلى ملامح وجهه الشيطانية.. كانت تشعر بمذاق الدماء في حلقها وكل جزء في جسدها يكاد ينفجر من الألم.. قالت بصوت مبحوح وقد تلاشت قدرتها على المقاومة:

- أرجوك لا تؤذِني!

- هذه إرادة الخالق.. آدم مجرد انحراف شاذ في الطبيعة وأنا أريد تعديل المسار.

ولم يكد يقولها حتى رن جرس الباب وسمعت صوت آدم ينادي:

- هالة!

أشار لها نجيب أن تصمت ولا تصدر أي حركة وهمس:

- ولا كلمة!

ثم تحرك بخفة وأطفأ أنوار الشقة.. كادت هالة تصرخ لتحذير آدم لكن صرختها لم تتجاوز حلقها. اتجه نجيب نحو الباب ووقف جانبًا دون أن يصدر أي صوت وأخرج سلاحًا أبيض بشع الشكل ثم حرك مقبض الباب ببطء وعيناه تبرقان في شراسة غير طبيعية. كانت هالة تراقب ما يحدث في استسلام قبل أن يتقدم آدم للداخل مبتسمًا حاملًا في يده باقة ورد وهو يظن أن هالة تحضر له مفاجأة وقال:

- هالة...

بتر عبارته حين فوجئ بها ملقاة على الأرض والدماء تغرقها وهي تئن من الألم وقد تضرر جسدها إلى حدٍ كبير، وبلا تفكير هرع نحوها مسرعًا وجثا على ركبتيه حتى صار قريبًا منها وأسند رأسها على يده.. سألها وهو يرتعش:

- من فعل بك ذلك؟

تسلل نجيب من وراء ظهر آدم ورفع السلاح واستعد لطعنه، لكن في نفس اللحظة استجمعت هالة كل ما تبقى لديها من قوة وصرخت:

- احترس!

التفت آدم بسرعة لكن نجيب كان أسرع وسدد طعنته الغادرة.

***

صرخت هالة في ارتياع.. شهق نجيب ومرت لحظة مرعبة وهو ينظر في وجه آدم الصارم.. كان هناك شيء خارق يحدث.. يد نجيب تحجرت في الهواء والسلاح على بعد سنتيمترات قليلة من عنق آدم كأن شيئًا خفيًا يمنعها.

نقل آدم بصره بين هالة وبين نجيب ففهم الأمر بسرعة وتزاحمت صور القتال الذي حدث في مخيلته. استشعر طعم الدم والألم والمعاناة في فمه.. ضغط على نواجزة بقوة وقال بصوت غليظ يخنقه الغضب وهو يشعر برغبة ملحة في تمزيق نجيب:

- أنت ارتكبت خطأً فادحًا..

اتسعت عين نجيب ذعرًا وشعر بقبضة حديدية فوق كتفها وألم موجع في كل عضلاته وبدأ جسده يطفو ويرتفع في الهواء ببطء حتى التصق بالسقف. حاول أن يصرخ لكن رأسه دارت حول نفسها بلا رحمة حتى خرجت فقرات العنق من اللحم ثم دارت عدة دورات بسرعة وتمزقت العنق والفقرات واللحم. انفصلت رأس نجيب عن مكانها وسقطت وتدحرجت على السجادة حتى توقفت عند قدم آدم. التفت آدم إلى هالة وهمس في أذنها:

- لا تخافي!

ابتسمت في وهن وفقدت الوعي تمامًا. احتضنها بقوة كاسحها ثم حملها بين ذراعيه وسار بها وخرج من الباب دون أن ينظر حوله. لكن في مكانٍ ما في الليل ترددت بضع صرخات في الفراغ.. صرخات (إفريقيا) الذي ما زال قابعًا داخل عقل نجيب.

- اللعنة!

تحدث إفريقيا مع نفسه:

- فشلت مرة أخرى.

- لا..

وبكل غضبه ضم قبضة يدية بشدة، وفي نفس اللحظة بدأت جثة نجيب بالارتجاف كأن الروح تعود إليها، ثم راحت مخالب خفية تمزق فيها بلا رحمة، فتساقطت الأشلاء والدماء على هيئة كومة من اللحم المطحون.

الفصل السادس عشر

مقابر الهلاك

قبل الميلاد..

طارت رأس امرأة في الهواء وارتطمت بالحائط ثم سقطت على الأرض بعد أن تركت خلفها بقعة دم حمراء وتدحرجت قليلًا حتى توقفت تحت أقدام آدم عند برج بابل.

نفس اللحظة، وفي شوارع مدينة بابل العظيمة، كانت رائحة الموت نتنة طاغية في كل مكان. تبعثرت الأجساد المقتولة والمذبوحة، وارتفعت صرخات المحتضرين، وانتشر الكر والفر بين أتباع آدم وبين الغوغاء، مما دفع العجائز والنساء والأطفال إلى التفرق والهروب إلى سفوح الجبال من هول ما يحدث، وانطلقت الأصوات تهدر:

- كاهن الرب.. كاهن الرب..

رغم ذلك تلك لم تكن البداية.. البداية كانت منذ عشرين يومًا فقط مع نهاية فصل الشتاء.. يومها كانت السماء مثقلة بالغيوم الرمادية والمطر يتساقط ناعمًا وباردًا.. كان خفيفًا عكس الأيام السابقة التي شهدت سيولًا حقيقة..

في هذا اليوم استيقظ حزقيال على صوت غريب داخل رأسه يقول:

- اخضعوا لإرادة الرب..

كان صوت غير قابل للوصف يبدو وكأن العقل قد تمرد وقرر أن يتحدث إلى صاحبه.. هذا الصوت سمعه كل أهل مدينة بابل. سمعه الكبير والصغير، النساء والرجال.. وحتى من فقدوا نعمة السمع.. كلهم بلا استثناء.. سمعوه.. تسرب إلى ثنايا عقولهم.. واستمر هذا الوضع لأيام أخرى.

أتباع آدم قالوا أن كبير الرب يتحدث وقد حان وقت الخضوع لجبروت وعظمه الرب.. حان وقت الاستسلام لإرادتهم..

وفي أكثر الليالي ظلمة اختفى هذا الصوت.. وساد صمت رهيب.. واعتقد أهل المدينة أن كل شيء قد انتهى وعاد الصمت من جديد.. لا أحد يفهم السبب أو سر ما يحدث.. ووسط هذا الصمت عاد الصوت الغامض يرن في كل العقول:

- اخضعوا لإرادة الرب..

ثم دوت صرخة.. صرخة شيء جائع ومخيف.. ودوت أصوات صرخات أخرى انبعثت كلها من مقابر المدينة.. وبدا أن كل الأموات يصرخون في قبورهم.. وعلت الأصوات أكثر واكثر.. كل ميت امرأة وطفل ورجل يصرخون في القبر وكأنهم بُعثوا من مرقدهم..

بدون تنسيق مسبق اتجه حزقيال بصحبة بعض الرجال نحو المقابر وبمجرد أن وصلوا وعلى مسافة ثلاثين قدم من باب المقابر شاهدوا عشرات الذئاب.. ذئاب سوداء ضخمة تقف فوق شواهد القبور نفسها.. وجميعها.. جميعها بلا استثناء تنظر إلى الرجال.

حين رأى حزقيال ذلك تذكر عندما تم خداعه منذ بضع سنين.. حين جمع فرعون السحرة يوم الزينة فسحروا أعين الناس.. ما أشبه اليوم بالبارحة! حاول حزقيال أن يبث الطمأنينة في نفوس الجميع:

- لا تصدقوا ما ترونه.. هذه خدعة الشيطان.

هز أحد الرجال كتفيه فزعًا واستهجانًا وقال في حدة:

- مستحيل.. هذا حقيقي!

استدار حزقيال نحو الرجل قائلًا في صرامة:

- انتظر وسترى.. هيا ندخل..

اتسعت عين الرجل وحدق في وجه حزقيال بدهشة قال:

- هل جننت.. الذئاب؟!

قال حزقيال في حزم:

- ثق بي.

ثم تقدم إلى الداخل وعبر البوابة وهو يحمل مشعل وتتبعه الرجال بحذر بالغ.. بدت له المقابر بكاملها وكأنها ممتلئة بالذئاب الصامتة.. وفيما كان يتقدم كانت المقابر تزداد ظلمة وتعالى صوت عالٍ من الشهيق والزفير جعلته يتخيل حشدًا من الأرواح الملعونة لكنه واصل طريقة رغم ذلك دون خوف.. وحين أصبح في منتصف المقابر ظن أنه شاهد بصيص ضوء من وراء أحد القبور وسمع صوت أنين مكتوم لشخص يتألم.

دار بحذر وراء القبر وهو يتحسس خطواته جيدًا.. رأى آثار دماء حديثة على الأرض يبدو أنها نُزفت منذ قليل. قال نفس الرجل وهو يأخذ أنفاسه بصعوبة:

- أشعر أن هناك شيء سيئ سوف يحدث!

عقد حزقيال حاجبيه في شدة وقال دون يلتفت له:

- يمكنك ان تعود..

نظر الرجل حوله ووجد أنه سيضطر إلى السير بمفرده وسط المقابر ووسط الذئاب المنتشرة.. شعر بالخوف وغمغم بصوت مختنق:

- أنا معكم..

ابتسم حزقيال وقال في مزيج من السخرية والصرامة:

- هذا ما توقعته.

وهكذا ساروا متوغلين أكثر في قلب الظلام والمقابر. فجأة طفت إلى آذانهم صوت صرخة يملؤها الخوف والألم، وراحت الصرخة تعلو وتعلو حتى تحولت إلى حشرجة وانقطعت. رغم ذلك استمر حزقيال يلاحق آثار الدماء وقلبه يخفق خفقانًا شديدًا مع كل خطوة يخطوها حتى شاهد صليب عملاق منصوب على وتد خشبي.. وفوق الصليب شخص بشري معلق.. رجل عاري تمامًا ذراعاه ممدودتان نحو الخارج كجناحي نسر والدم يقطر من كل جزء من أجزاء جسده.. ورغم كل تلك الجروح كان ما زال على قيد الحياة.. عيناه يسودهما الرعب

والهول..!

مرت لحظة صمت بدا فيها أن لا أحد يتنفس، وشعر حزقيال بصدمة قبل أن يقترب من الرجل المصلوب وهو يقول:

- سيدي راهب معبد الرب.

- ساعدني.

وقبل أن يصل إليه حزقيال انشطر نصف الصليب الخشبي دفعة واحدة ومعه انشطر الرجل إلى نصفين..!

شهق حزقيال في ارتياع وتراجع للخلف، وقبل أن يفيق من صدمته لمح شيء يتحرك في مجرى الماء الذي يمر خلال المقابر فتجمد في مكانه.. شاهد في الماء وجوه.. مجرى الماء بالكامل كان ممتلئ بوجوه منتفخة وجلود متعفنة..

ميز حزقيال الكثير من تلك الوجوه.. وجوه أموات.. شاهد وجه جده.. وجه جاره الذي سقط ميتًا منذ شهر.. وجوه أشخاص شاهد جنازتهم بنفسه.. ولأول مرة منذ سنين طويلة يشعر حزقيال بكل هذا القدر من الهول والذعر.. ومن بعيد سمع صوتًا حادًا أجوف يردد:

- الموت لأعداء الرب.

احتشد الرجال مقتربين بعضهم من بعض في توتر.. حزقيال صرخ:

- اهربوا.

في نفس اللحظة وبدون سابق إنذار بدأت كل الذئاب السوداء

تقفز من فوق شواهد القبور وتهاجم الرجال وكأن صرخة حزقيال كانت هي إشارة البدء.. الذئاب كانت تقتل كل من تصل إليه.. صرخات الرجال كانت هائلة لكن الذئاب كانت بلا رحمة.. تمزق وتفترس وتقطع.. لم يكن هناك مجال للهرب أو النجاة.. الظلام والليل والرعب.. الرجال جميعًا محاصرين داخل مقبرة الأموات وصرخات الذئاب لا تتوقف.. المجزرة مستمرة ويبدو أنها لن تنتهي.. ثم هبت ريح عاصفة من الهواء البارد المؤلم، تبعتها صرخة تخرق السمع، وبدون تفكير ألقى حزقيال نفسه في الماء.. سقط بين جثث الأموات الطافية، وراح يضرب بكلتا يده يمينًا ويسارًا.. الجثث حقيقة.. ليست وهم.. أنهم أموات المدينة فعلًا..

كاد حزقيال أن يغرق وابتلع الكثير من المياه الفاسدة والرائحة القذرة.. شهق بعنف وكأنه شهيق أخير، وفي حركة يائسة أمسك في أحد الجثث الطافية وتشبث بها حتى لا يغرق.. لم يعد يستطيع الحركة وشعر أن كل عضلات جسده أصابها الشلل.. ثم تحركت الجثث الطافية إلى أعلى وبدأت تظهر من تحت الماء جثث أخرى بألف شكل من أشكال البشاعة، وامتلاء سطح المياه بالأموات وظل العدد يزيد ويزيد.. لقد كان هذا هو الرعب الأعظم.. الشناعة المطلقة..

أدرك حزقيال أنه على وشك الموت وبدأ يختنق تحت أكوام الجثث.. لا نور.. لا هواء.. لا مخرج.. لكن فجأة شعر بجسمه يتحرك وبشيء يجذبه وصعد فوق الجثث وكأن قد هناك قوة ما غير مرئية تساعده، ظل يقفز فوق الأموات إلى أن تمكن من الوصول إلى

الناحية الأخرى من النهر.. وبكل ما أوتي من قوة شرع يركض دون أن ينظر خلفه ودون أن يملك الشجاعة لكي يلتفت..!

***

الفصل السابع عشر

الحب والرعب

داخل أحد المستشفيات ومن دون ضجيج سار آدم داخل في ممر بارد طويل.. على اليمين واليسار توجد غرف المرضى والأقسام المختلفة.. رغم ذلك لم يكن هناك أي صوت.. كان يوجد هدوء وصمت هائل.. في كل الأركان تتراقص ظلال داكنة مخبولة.. انتاب آدم هاجس خفي أنها تراقبه..!

على نهاية الممر التقى برجل عجوز يبدو مهمومًا.. الشيخ (الراوي).. حين راه أجفل للحظة وتبادلا النظرات.. ولسبب ما توقف مع الشيخ الرؤي وتحدث..

يمر الوقت.. الشيخ الراوي يخبر آدم أنه في انتظار خروج ابنه من غرفة العمليات.. بدا مهزومًا منكسرًا وهو يتكلم.. على العكس كان آدم غامضًا، شعر أنه يعرف الشيخ الراوي، ورغم أنه حاول أن يتذكر أين تقابلوا قبل ذلك، لكن ذاكرته لم تكن حاضره، أو هو لا يدري أن في مرحلة ما كان الشيخ الراوي هو الحارس على قبره..

تبادلا كلمات بسيطة أخرى قبل أن ينصرف آدم، يتابعه الشيخ الراوي من ظهره، وهو يسأل نفسه هذا السؤال:

- لماذا هذا الشاب لا يبدو غريبًا..؟

أمام باب أحد الغرف استجمع آدم انفاسه ودفع الباب بهدوء ودخل.. شاهد هالة فوق سرير طبي تسبح في ظلمة مالة إلى

الزرقة..

اقترب من سريرها في هدوء وصمت.. لم يكن هناك ما يخدش هذا الصمت سوى أزيز جهاز نبضات القلب.. كانت هالة شبه غائبة عن الوعي.. الفتاة الجميلة التي أحبها في انتظار ركوب قطار الموت.. عليه أن يفعل كل ما بوسعه حتى لا ترحل.. ظل طويلًا ينظر إليها قبل يجرؤ ويضع يده على جبينها.. شعر بنبض قلبها واهنًا ضعيفًا.. قال في خفوت:

- أعدك أن فعل هذا سوف يدفع الثمن

وأغمض عينيه في قوة وأصغى كامل حواسه.. العرق البارد يحتشد على جبينه.. ثم اندفعت روحه تغادر جسده تبحث عن إفريقيا.. المشكلة الوحيدة أنه قد لا يستطيع العودة.

***

أوصد إفريقيا الباب خلفه جيدًا ثم دلف إلى غرفة نومه وألقى جسده المنهك على الفراش وغاص في نوم عميق تاركًا نور المصباح المجاور لفراشه مضاء..

بعد مدة وعلى ضوء المصباح تصاعد دخان خفيف على الأرض كأنها تحترق ثم تجسد منه ظل شديد السواد على هيئة بشرية، ومن زاوية معينه كان شبيه بظل آدم. تركزت أنظار الظل على وجه إفريقيا الذي يرقد ورأسه على الوسادة وكأنه ينظر إلى السقف، ثم تحرك الظل في أرجاء الحجرة بهدوء، وتدريجيًا بدأ يستطيل حجمه على نحو بطيء..!

على مقربة من مقدمة سرير إفريقيا كان يوجد منبه رقمي يشير إلى الساعة 2:59 صباحًا.. مرت دقيقة قبل أن يلمس ظل آدم رأس إفريقيا وتغيرت الأرقام أصبحت 3 صباحًا.. فجأة انطلق صوت رنين المنبه المزعج وانتفض إفريقيا مفزوعًا ينظر حوله.. الغرفة تغرق في ظلام دامس وصمت وسكون غريب.. حاول النهوض لكنه شعر كأن السرير يطفو فوق سطح مياه تموج به..!

الخوف الذي شعر به إفريقيا في تلك اللحظة فاق كل خوف مر به في حياته وكأن شيئًا ما زحف في الليل والتصق بجلدة.. نظر يمينًا ويسارًا يحاول أن يخترق ببصره الظلام.. هناك شيء غير طبيعي لا يعلم ما هو.. ثم بعد لحظة شاهد ضوء خافت يأتي من سقف الغرفة وفي اللحظة التالية بعدها سقط هذا الضوء على الأرض أمامه..!

دقق إفريقيا النظر جيدًا.. كان هذا هو المصباح الموجود بجوار السرير قبل أن ينام.. لكن كيف ارتفع وطار للسقف.. ثم بعد تفكير وبعد أن اعتادت عيناه الظلام اكتشف السبب.. حين نظر إلى السقف وجد فتحة هائلة واكتشف أنه ينظر إلى غرفته من أسفل وكأن الأرض انشقت وابتلعته.. حدث نفسه:

- عبث شيطاني.

ثم وقف على طرف السرير وحاول بكل قوته الوصول إلى حافة الفتحة لكن بلا فائدة.. كانت مرتفعة جدًا..!

هبط إفريقيا على الأرض فشعر أنها جامدة وباردة جدًا.. تحرك بضع خطوات وفجأة دوت صرخة هائلة ثم ظهر ضوء أحمر أضاء كل

المكان وظهر كل شيء.. كان في منتصف أرض جرداء تشبه الصحراء وفوق منه سقف مكسور هو أرضية غرفته، ومن حوله عظام بشرية متكدسة وتماثيل سوداء لرجل يرتدي عباءة سوداء ويخفي وجهه..!

تجاوز إفريقيا كومة العظام البشرية وحاول البحث عن مخرج لكن في الظلمة التي كانت لا تزال موجودة لم يكن يعرف إلى أين يتجه.. بدأ يشعر كأنما هو يدور حول نفسه.. صرخ في أعماقه:

- أيها الشر.. أظهر نفسك..!

سمع صوت آدم يأتي من بعيد:

- على من أنكروا وجود الرب أن يشهدوا على جحيمها

جرى إفريقيا نحو مصدر الصوت ثم توقف في مكانه حين سمع صوتًا غريبًا.. سلسلة من الضربات والصدمات المتكررة تحدث تحت الأرض التي يقف عليها ذكره ذلك بأعمال الحفر والتنقيب..!

انهارت الأرض من حوله وظهرت حفرة عملاقة راحت تتسع وتتسع.. شرع في الركض وحاول أن يبتعد عنها حتى لا يسقط فيها لكن خرجت أيادي طويلة وقبضت على ساقه وبدأت تجذبه نحو قاع الحفرة.. قال صوت آدم:

- العذاب لأعداء الرب.

حاول أن يتشبث بأي شيء لكن الأيادي التي تجذبه كانت أقوى منه وبدأت تلتف حوله مثل الأفاعي وتحاول القضاء والسيطرة على حركاته المتملصة القوية.. التفت وراءه فشاهد العشرات من

البشر العراه والمسوخ الآدمية في قاع الحفرة يصرخون صرخات رهيبة ويحاولون أن يصعدوا إلى الأعلى.. أذرعهم كانت أطول من أذرع البشر العادية.. وجوههم نحيلة جدًا.. أجسادهم مجرد هياكل عظمية فوقها قليل من الجلد الممزق.. كانوا يصرخون بلا لحظة توقف.. صرخات مرعبة تفوق قدرة أي مخلوق على الاحتمال.. صرخ إفريقيا:

- أنا صنيعة الخالق.

قال صوت آدم:

- نعم.. الرب خلق المسوخ وخلقك أنت أيضًا.

ظل إفريقيا في محاولاته اليائسة وقتاله مع المخلوقات وخصوصًا بعد أن خرجت بعض المسوخ وراحت تمزق فيه وبدأ ينزف.. عاد الصوت يقول:

- ستموت ببطء.

ناضل إفريقيا وقاتل لكي لا تبتلعه الحفرة لكن المسوخ جذبته معها وتعالت صيحات الألم للوجوه المشوهة والأجساد التي تراكمت فوق بعضها..!

فجأة انفصل إفريقيا إلى شخصين.. كلاهما نظر إلى الآخر للحظة.. أبيض وأسود.. تسلق الأبيض بسرعة وقوة فوق المسوخ وكان قادرًا على الخروج.. مد يده إلى الأسود وصاح:

- أمسك يدي.

ترك الأسود نفسه للمسوخ وقال:

- لا.. نحن نستحق ذلك.

- لكن أنا لا أريد أن أموت.

- أغمض عينيك وتقبل مصيرك.

توقف الأبيض على حافة الحفرة وهو يلهث.. المسوخ تقترب أكثر وأكثر.. أغمض عينيه وقال:

- أنتَ محق هذه المرة.. نحن نستحق ذلك

وقفز وسط المسوخ وهو يهتف:

- أنا قادم أيها الموت.

ثم تكالبت عليه المسوخ وتقاذفوه فيما بينهم حتى انسحق وتمزق بين أيديهم وهم يصرخون صرخات شيطانية.

***

تململت هالة في سريرها وفتحت عينيها ببطء.. شاهدت آدم يجلس في مواجهتها مغمض العينين لا يتزحزح مثل التمثال.. هتفت:

- آدم.

فتح عينيه على إثر ندائها فجأة وشهق:

- هالة.

أشارت إلى وجهها:

- كيف أبدو..؟

- جميلة.

- قل الحقيقة.

- تبدو وكأنك شاركت في الحرب العالمية الثانية.

ضحكت نصف ضحكة:

- هايل هتلر.

- كيف تشعرين..؟

حركت رأسها:

- عليلة للغاية.

ثم استطردت:

- أريد أن أرى وجهي.

- أعتقد أنها ليست فكرة جيدة

- آدم.. أرجوك.

نهض في استسلام ونزع مرآة من على الحائط ووضعها أمام وجهها، وبمجرد أن نظرت إلى نفسها هتفت في حسرة:

- لا ينبغي أن تراني في هذه الحالة.

وضع يده على كتفها:

- صدقيني أنتِ جميلة في كل الأحوال.

تنهدت قبل أن تقول:

- بالمناسبة غادة جاءت لزيارتي بالأمس.

- متى..؟

ارتجفت ابتسامة على شفتيها:

- لا أعرف متى الضبط.. فقدت الإحساس بالوقت.. إنهم يعطونني أدوية كثيرة لتسكين الألم.

تذكر آدم أن غادة كان لديها تحفظات كثيرة على وجود هالة في حياته. سألها:

- ماذا قالت لك..؟

أجابت:

- مجرد كلام عابر.. لكنها كانت مبادرة لطيفه منها

ثم غيرت الموضوع وقالت:

- آدم.. متى سأخرج من هنا..؟

قال في حزن:

- أظن بعد شهر.

نظرت في وجهه:

- من فضلك.. لا تشعر بالذنب نحوي.. لولاك لكنت ميتة سلفًا

انحنى عليها وطبع قبلة فوق جبينها وهو يقول:

- أحبك.

***

تطلعت غادة إلى ذلك المبنى الضخم المحاط بحراسة قوية وهي تقترب منه بسيارتها عبر طريق بوابة خاصة يحظر المرور فيه لغير المتجهين إلى ذلك المبني.. كانت تعلم أن هذا هو المقر الرئيسي لمنظمة (S.C.P) بحكم انتشار الحديث عنها في الفترة الأخيرة..

كان لديها هاجس متصاعد من المخاوف والأفكار السيئة حول المنظمة لكن هذا لم يمنعها من تلبية دعوة الحضور وخصوصًا حين تم ذكر اسم آدم في الموضوع..

توقفت بالسيارة أمام البوابة الرئيسية وبمجرد أن ذكرت اسمها سمح لها حارس الأمن بالدخول فورًا إلى مقر المنظمة حيث ركبت مصعد إلى الطابق الأخير.. لم تكن هناك سكرتيرة.. فقط استقبلها هاشم في مكتبة.. حياها بحرارة ودعاها للجلوس:

- سيدة (غادة).. مرحبًا بك في مقر أهم منظمة أبحاث في العالم

ظلت واقفة وقالت في حذر ودون تمهيد:

- ما علاقة آدم ابني بالمنظمة.

ابتسم وقال في هدوء:

- كلانا يعلم أن آدم ليس ابنك.

ثم أشار لها قائلًا:

- دعينا لا نتعجل في الحديث.. من فضلك اجلسي وسوف أشرح لك

جلست غادة على المقعد المقابل لمكتب هاشم، والذي جلس بدوره وشبك أصابع يده أمام وجهه وقال وهو يضغط على كل حرف في كلامه:

- في الحقيقة، آدم، ليس ابن أحد، آدم إنسان مستنسخ.

انعقد حاجبا غادة في استهجان واختنق صوتها وهي تقول:

- مستنسخ..؟!

هز هاشم رأسه إيجابًا وعاد يقول:

- أعلم أن هذا شيء يصعب تصديقه لكنها الحقيقة.. بالتأكيد طريقة نموه وكل تلك الأمور الخارقة التي يفعلها أثارت لديك الكثير من علامات الاستفهام.

انطلق في ذهن غادة شريط سريع من الذكريات حمل إليها كل مواقفها مع آدم منذ أن عثرت عليه ثم تطلعت إلى وجه هاشم وقالت:

- هذا خيال علمي.

مال نحوها قائلًا:

- طبعًا لا.. أنا أتحدث عن العلم الحقيقي.. العلم الحقيقي لا يدرس

منه إلا 5% فقط.. خواص البشر هم فقط من يدرسون النسبة الباقية.. هناك العلوم الأثيرية وعلوم العناصر التسعة للخلق والتكوين والطاقة اللا منتهية

سألته غادة في اهتمام بالغ:

- ولماذا تخبرني بذلك..؟

أجاب في سرعة:

- لأن حياة آدم في خطر بالغ ولم يعد لدينا المزيد من الوقت.. يكفي أن أخبرك أن واحد من أخلص رجالي (نجيب) مات بسبب قاتل خارق يستهدف القضاء على آدم.

ومضى يحكي لها كل ما خفي عنها بكل التفاصيل، وهي تستمع له بتركيز، وحين انتهى بدأت غادة شديدة التوتر وهي تقول:

- أنه أمر صعب التصديق كما أن ما فعلته غير قانوني أو اخلاقي

ابتسم:

- هذا لأن الأخلاق والقانون غير مؤهلين لاتخاذ قرارات مثل هذه.

ونهض ومشى ناحية النافذة الكبيرة التي تطل على الخارج وقال:

- غادة.. لقد بذلت جهدًا رائعًا مع آدم.. أريدك أن تساعدينا كي نجعله يتقبل حقيقته.. تحدثي معه.

والتفت نحوها واستطرد:

- صدقيني حين أقول لك أن العالم على حافة النهاية.. الجرائم..

القتل.. الحروب.. عالم من الفوضى.. البشر في حاجة إلى كاهن الرب كي يعيد السلام إلى العالم.

- وماذا لو رفض..؟

- لا مجال للرفض.. سوف نحصل على آدم في النهاية.. سوف...

صرخت غادة:

- توقف.

ونهضت من مكانها في حدة:

- لن أسمح لأحد أن يقترب من ابني.

واستدارت تغادر غرفة المكتب ودفعت الباب أمامها بشدة وهي تضيف:

- لا أريد أن أراك مجددًا.

مضت لحظات وهاشم جالس في مكانه بعد أن خرجت غادة قبل أن يهز رأسه في حنق ممزوج بالإحباط ويقول:

- اعتقدت أنك من الفئة القادرة على رؤية الصواب.

ثم تناول سماعة الهاتف وتحدث إلى قائد الفريق المكلف بمراقبة آدم وقال في حزم:

- نفذ الآن.

***

غادر آدم المستشفى الموجود بها (هالة) عبر البوابة الرئيسية، ثم انعطف يسارًا باتجاه طريق المارة. أخرج هاتفه وحملق في عدد المكالمات التي لم يرد عليها.. عشر مكالمات كاملة من (غادة).. التمعت في ذهنه صورة مضطربة لها وهي تجلس في قلق.. أسرع يتصل عليها وبمجرد أن سمعت صوته قالت:

- آدم.. هل أنت بخير..؟

- بالتأكيد أنا بخير.

- صوتك يقول غير ذلك لكن سأحاول أن أصدقك.. أخبرني كيف حال هالة..؟

قال كاذبًا:

- أصبحت أفضل.

- هل تحتاج إلى مساعدة.

- لا بأس.. لا تقلق.. أستطيع تدبر أمري.

صمتت قليلًا قبل أن تقول:

- ثمة شيء أريد أن أتحدث معك بشأنه.

عقد حاجبيه:

- ما هو..؟

- نتحدث في المنزل أفضل

- حسنًا.. أنا...

وقبل أن يكمل عبارته سمع حركة مضطربة تأتي من خلفه ولم يدر إلا وإبرة حادة تخترق عنقه وفقد الوعي.

***

الفصل الثامن عشر

الحقيقة

الوقت الحالي..

فجأة استعاد آدم إحساسه بما حوله.. لم يدر حتى متى فقد هذا الإحساس.. كل ما يذكره أنه كان يتحدث مع غادة هاتفيًا ثم هاجمه هؤلاء المجهولون من الخلف وبعدها راح يسقط.. ويسقط.. ويسقط.. ثم توقف سقوطه بلا سبب وعاد إليه وعيه.. كان عقله يدور في شدة ولكنه أجبر جفنيه على الاتساع ليتطلع إلى ما حوله بكل دهشة الدنيا.. المكان يشع ضوء بنفسجي بارد.. جدران معدنية ورائحة أدوية طبية.. حاول التكلم لكن صوته لم يتجاوز حلقه.. كان شبه مشلول مستلقي على ظهره فوق محفة معدنية يدفعها مجموعة من الأطباء داخل ممر طويل.. سقف الممر يتحرك فوق رأسه بسرعة بالغة كأنه يدور مثل النحلة.. استجمع كل ما تبقى من قوته وقال بصوت خرج متحشرجا:

- من أنتم..؟

من وسط الرجال الذين يحيطون به شاهد وجه هاشم يبزغ من بينهم ويقول له:

- اطمئن.. سوف تكون بخير.

أدخلوه غرفة بها حوض زجاجي ممتلئ بمحلول كهرماني اللون، مزود بآلات وتقنيات حديثة جدًا، بعدها سمع عبارات مختلطة:

- إدخال آدم في غيبوبة اصطناعية أمر بالغ الخطورة.

- نحتاج إلى أن نجعله يسترجع كامل ذكرياته.

- لكن هناك خطورة على حياته.

- علينا أن نخاطر.. أدوية تحفيز الذاكرة هي الأمل الأخير.

- ربما يموت.

- لن يموت.. سوف نجعله يقترب من حافة الموت.

أراد آدم أن يصرخ فيهم لكن قناع التخدير هوى على وجهه، شعر أنه يدور داخل دوامة، رأى فيها ألف انعكاس لوجهه، وبدأ يسمع في أذنه أصوات موسيقى وصلوات جنائزية قبل أن تصدر منه رجفة قوية ثم تيبس جسده وتوقف عن التنفس وعبر أخيرًا إلى الجانب الآخر من الموت وطرق الباب.

***

قبل الميلاد..

طرق آدم بوابة منزل حزقيال ووقف ينتظر، كان يلبس رداءً بلون أزرق سماوي يعلوه مئزر باللونين الأحمر والذهبي ويرتدي على صدره قلادة من الأحجار الكريمة.. مضت لحظات قبل أن تخرج له عائنة وهي تواري جزءًا من وجهها. حدقت في ملامح وجهه الذي تضخم وامتلأ بالتجاعيد العميقة والشعر الأبيض الناعم.. قالت فيما يشبه الهمس:

- زوجي مريض.

هز رأسه:

- أعلم.

ثم ثبت عيناه عليها ولاح على ثغره شبح ابتسامة خبيثة وهو يضيف:

- وأعتقد أنكِ كذلك.

لم ترد عليه وأشارت له بالدخول. مشى ببطء وبخطوات مكتومة بينما هي تتقدمه حتى توقفت أمام باب غرفة تنغمس في ظلام دامس، وتفوح من داخلها رائحة عطنة مكتومة. عبر الباب ولم يرَ سوى الظلمة الحالكة التي تبتلع الحجرة كأنها فم وحش جائع قبل أن يسمع صوت حزقيال يأتي واهنًا:

- آدم.. كنت في انتظارك.

أضاءت عائنة مصباحًا زيتيًا مستديرًا كقرص الشمس، وبدأ الظلام يتبدد في الغرفة والنور يغزوها شيئًا فشيئًا. فوق الفراش الخشن كان حزقيال ممددًا على ظهره وقد انتفخ جسده مثل جثة مكثت طويلًا في مياه راكدة، وأصبح لون بشرته رماديًا ضاربًا إلى الزرقة وتجمعت رغوة بيضاء على زاويتي فمه. اقترب منه آدم وهو يحدق إليه ثم جلس على طرف الفراش قائلًا:

- كيف حالك؟

ابتسم حزقيال بضعف:

- كما ترى.

- أنت تحتضر.

حاول حزقيال أن يبتسم ساخرًا:

- الأسوأ من ذلك هي الأحلام.. أنا أرى وجهك في كل أحلامي.

وضع يده على رأس حزقيال ومسح بعضًا من عرقه وأضاف بلطف:

- ما كان ينبغي لك إن تتحدى إرادة الرب!

وبعد صمت عم الحجرة قال حزقيال بصعوبة:

- جئت تودعني إذن!

- نعم.

سأل حزقيال بصوت أجش:

- وماذا عليّ أن أفعل؟

أحاط آدم وجه حزقيال بيديه قائلًا:

- لا يوجد ما يمكن أن تفعله الآن.

ثم أغمض عينة وهو يستطرد:

- فات الأوان..

***

الوقت الحالي..

فتح آدم عينيه بغتة.. هذه المرة وجد نفسه يقف أمام جبل شاهق الارتفاع به فتحة كهف مظلمة تبدو مثل فم يصرخ. فوق رأسه يتراقص برق فضي ورعد مجدب بلا أمطار..

دار آدم بعينه دورة كاملة فيما حوله، كان كل شيء يمتد إلى مسافة لا نهائية. عاد ينظر إلى فتحة الكهف.. شيء داخله يدعوه للدخول.. أصوات.. أصوات تصرخ.. مرة له ومرة عليه.. تخيل أن هناك وحشًا بثلاثة رؤوس وأنياب.

تقدم بضع خطوات إلى الأمام حتى ابتلعته الظلمة.. شعر بيد تنبش التراب تحت قدمه.. التراب يتسلل إلى أنفه.. يسعل بقوة.

من بعيد رأى بقعة نور واهنة شبة فسفورية تتجسد كأنها عين قط راحت تقترب منه ببطء إلى أن اتضحت ملامح صاحبها؛ رجل محني العنق كأنه ذئب مسن. نفس الرجل الذي يظهر له دائمًا في كل رؤياه. اقترب من آدم بخطوات مبعثرة وهو يقول:

- آدم.. كاهن الرب الأخير.

غمغم آدم في حذر:

- من أنت؟!

ابتسم الرجل:

- اسمي هازارد.

ووضع يده فوق جبين آدم وأمر الدود أن يخرج منه فقفزت من فم آدم ديدان سوداء قبيحة وسالت على الأرض. تحشرج صوت آدم واحتقن وجهه وهو يسأله:

- ماذا تريد مني؟

أجابه هازارد في سرعة وبساطة:

- أريد أن أخبرك الحقيقة.

***

قبل الميلاد..

- الحقيقة أنني سأموت.. أنقذني!

قالها حزقيال وهو يحدق في وجه آدم الذي هز رأسه وقال:

- لا أستطيع.

اتسعت عين حزقيال:

- أتريدني أن أتوسل لك؟

مط آدم شفتيه:

- ليس لي.. بل له.. الرب.

قال حزقيال بقوة:

- إذا كنت تعرفني جيدًا فأنت تعرف إجابتي.

تنهد آدم بقوة:

- ساعدني لأساعدك..

صاح حزقيال بصوت مرتفع:

- أنت مدين لي.. أريدك أن ترد الجميل.

صرخ آدم بغضب:

- أنا دفعت ديني أكثر من مرة.. لولاي لكنت ميتًا منذ أعوام.

ثم ضرب جزءًا من الفراش وأضاف:

- أنت رجل أحمق!

شهقت عائنة واتسعت عين حزقيال فانتبه آدم إلى أنه فقد أعصابه فخفض صوته حتى صار كأنه همس وقال:

- أعتذر.. ما كان ينبغي أن أكون قاسيًا معك هكذا.

وظلا صامتين يحدقان إلى بعضهما.. قال حزقيال:

- لا عليك.. ربما تماديت أنا أيضًا في الأماني.

وأشاح ببصره إلى سقف الغرفة وقال بصوت يشبه الاعتراف:

- أتعلم.. في تلك الغرفة المظلمة فكرت كثيرًا في الموت.. تخيلت أنه غول يعيش تحت الأرض.. صدقًا أشعر بالخوف لكن ذلك لا يغير من حقيقة أن الجميع مصيره الموت.

والتفت إلى عائنة التي تقف في الركن صامتة وليس في إمكانها أن تفعل سوى ذلك، وقال:

- على الأقل عشت معها حياة سعيدة.

ثم تهدج صوته واعترت نبراته رعشة وهو يستطرد:

- عائنة.. أعتقد أن الخالق كان راضيًا عني حين رزقني زوجة مخلصة مثلك.

ومد حزقيال يده وصافح آدم:

- صديقي القديم.. وداعًا.

وظهرت ابتسامة ساخرة على وجهه لوهلة ثم ارتعش جسده بعنف وراحت أسنانه تصطك ببعضها في قسوة حتى لفظ آخر أنفاسه وتدفقت الدماء من زاويتي فمه.

تنهد آدم في أسف وانتظر قليلًا قبل أن يجذب غطاءً من الصوف الممزق ويضعه فوق جثة حزقيال، ثم نهض من مكانه وتحرك بهدوء نحو الخارج لكن وجد عائنة تعترض طريقة وتقول بصوت مبحوح:

- سيدي.. أرجوك.. أنا لا أريد أن أموت!

ثم أزالت الغطاء الذي يخفي وجهها وجذبت قطعة من القماش فسقطت ملابسها دفعه واحدة على الأرض وتجسدت له عارية وأكملت:

- أتوسل إليك!

تراجع آدم خطوة للوراء وحدق في بقعة سوداء قبيحة فوق عانتها قبل أن تسجد تحت قدمه.. عارية بيضاء.. شاحبة.. رأسها محني

وظهرها مقوس.. لم يكن هذا استجداء.. كان ضعفًا بشريًا.. كانت ترتجف.

انحنى آدم نحوها فاصطدمت أنفاسه الدافئة بصدرها ونظر لها نظرة حادة فاحصة.. ناداها بصوت خافت:

- عائنة.. لكل شيء ثمن.

رفعت وجهها نحوه بحركة مضطربة وهتفت:

- ماذا تريد؟

قال وهو يمسح بيده على شعر رأسها:

- أنا لا أريد شيئًا.. دائمًا الرب هو الذي يريد.

- امنحني العلاج إذن.

- علاجك، رأس رجل ميت.

نظرت إلى الأرض وشعرت بكلماته كأنها أنصال سيوف تمزق أحشائها، وظلت قابعة في مكانها في حين حاصرها آدم بنظراته وقال بصوت عميق للغاية:

- على من يريد أن يصل إلى الجنة أن يمر أولًا من الجحيم.

كل جزء في جسدها بدأ يرتعش وكأن ثمة من يهزها من الداخل، كانت تفكر، تحاول جمع شتات نفسها بينما استرسل آدم في الحديث:

- فكري أن الخيار الآخر هو الموت، قبر تنهش فيه الفئران عظامك.

تناولت فأسًا من فوق الجدار واتجهت مسرعة نحو جثة حزقيال وكشفت وجهه.. قال آدم وكأنه يخاطب حزقيال:

- أترى الآن صديقي أنك لطالما كنت مخطئًا في معرفة الحقيقة! حين يصبح الإنسان في اختبار جاد، تظهر شرور أعماقه البشرية.

والتفت إلى عائنة وقال:

- عليكِ أن تلتهمي دماغه بالكامل.

رفعت عائنة الفأس عاليًا ونظرت إلى جثة حزقيال وصرخت:

- سامحني..

وبدأت تكسر الرأس.. وتكسر.. وتكسر.

***

الوقت الحالي..

استعاد آدم وعيه فوجد نفسه فوق سرير معدني داخل غرفة مزدحمة بالأجهزة الطبية التي تحيط به. كان يشعر بتغيير كبير في شخصيته، إدراكه لكل ما يحيط به تغير.. إحساسه بالزمان والمكان تغير.. مشاعره تغيرت.. من استيقظ في تلك اللحظة كان هو كاهن الربَ الحقيقي.. آدم بكامل قدراته وذكرياته أخيرًا.

- لا داعي للخوف.

التفتَ آدم في اتجاه مصدر الصوت.. شاهد هاشم يقف في ركن الغرفة وهو يعقد كلتا يديه على صدره.. قال آدم في هدوء:

- أنا لست خائفًا.

انحنى هاشم على الأرض:

- عودًا حميدًا سيدي كاهن الرب (آدم).

غمغم آدم:

- لا تناديني بهذا الاسم.

ثم انتزع كل الأسلاك التي في ذراعه وهو يكمل قائلًا:

- أريد أن أغادر هذا المكان.

انتصب هاشم واقفًا وقال في حماس وحرارة:

- العالم في انتظارك يا آدم.. إنه قدرك.. لقد أعددت العدة لتلك اللحظة المصيرية. أكبر مؤتمر صحفي في هذا القرن تم التحضير له من أجلك.. الجميع في انتظارك.. رجال الصحافة والإعلام.. رجال العلم.. رجال الدين.. رجال المال.. رجال السياسة.. العالم كله في قبضة يدك.

اقترب آدم من نافذة الغرفة ونظر إلى الشارع.. شاهد حشودًا من المصورين والصحفيين يقفون خلف حواجز حديدية تحرسها الشرطة. خلف تلك الحشود تقف شاحنات بيضاء تحمل على أسقفها أطباق بث إذاعي.. كانت كل وكالات الأنباء العالمية والصحف قد تلقت خبر إعلان المنظمة عن قيامها باستنساخ كاهن منذ عدة ساعات. الكل في انتظار ظهوره ومعرفة التفاصيل.. بعض عامة

الناس جاؤوا أيضًا للفرجة وقد رفع العديد منهم هواتفهم المحمولة لالتقاط صور المبنى. التفت آدم إلى هاشم وقال في اقتضاب:

- لا أهتم.

وأراد أن يتحرك نحو الباب لكن هاشم اعترض طريقة وصاح به في حزم:

- لا يمكنك الفرار من هذا آدم

التفت له آدم:

- لماذا؟

رد هاشم في سرعة:

- لأنه القدر.

غمغم آدم في تفكير:

- القدر!

وأطرق برأسه أرضًا وصمت للحظة قبل أن يرفع وجهه وينظر إلى هاشم من جديد ويضيف في حدة:

- تحتاج أن تعرف أكثر عن القدر.

ثم تبدلت ملامحه إلى ملامح كلها قسوة وهو يضيف:

- القدر أحيانًا يكون ماكرًا ومخادعًا.

وحرك يده فاندلعت النيران بغتة في جسد هاشم الذي صرخ في

ارتياع:

- كاهن الرب.. لا..

حاول أن يقاوم النار في يأس لكنها تأججت وأصيب بصدمة عصبية من هول الحرارة والألم فسقط على الأرض وبدأت النار تذيب جلده وتشوي لحمة حتى تفحم تمامًا وتشققت عظام جمجمته وانفجر سائل مخه ثم طفح فوق وجهه في مشهد بشع.

الفصل التاسع عشر

النهاية

بأقصى سرعة انطلقت غادة بالسيارة في اتجاه مبنى المنظمة.. تدرك جيدًا أنهم هم من اختطفوا آدم، لكنها لن تسمح لهم.. سوف تقاتل من أجله مهما كان الثمن. أوشكت أن تصل.. فقط تقاطع واحد وشارعين.. وفجأة اتسعت عيناها عن آخرهما في رعب وانتبهت إلى هذا الرجل. رجل قطع عليها الطريق أتى من الاتجاه المقابل. ضغطت غادة المكابح بكل قوتها في محاولة يائسة وهي تصرخ، وبصعوبة هائلة استطاعت أن تتوقف قبل أن تدهسه لكنها اصطدمت بحافة الرصيف وتوقفت بالسيارة وقد تهشم جزؤها الأمامي.

التقطت غادة نفسًا عميقًا في محاولة لتهدئه أعصابها الثائرة ثم فتحت بابها وترجلت من السيارة. رأت وجه الرجل الشاحب الذي لم يفق من حسرته بعد وأحست بلحظة من الشفقة ثم تجاوزته مسرعة.. كان يوجد جرح قطعي في رأسها ودماء تسيل لكنها لم تشعر به واستمرت في الجري بلا لحظة تفكير حتى وصلت إلى مبنى المنظمة ثم توقفت مصدومة ونظرت في اضطراب شديد.

كان المبنى يحترق بالكامل كأن شهابًا أصابه.. عشرات الأشخاص في الشارع يحدقون في صدمة ورعب.. نظرات الفزع الشديدة مسيطرة على الجميع ليس بسبب الحريق فقط لكن بسبب النار نفسها.. نار سوداء تشبه ثعبان هائل يدور حول المبنى وتأكله من الخارج. لم يكن مصدر النار حريق من الداخل.. النار كانت منبعثة

من الجدران نفسها.. كل العاملين الموجدين في مبنى المنظمة كانوا محاصرين في الداخل لا يستطيعون الخروج.. أصوات صرخاتهم تصل إلى كل من في الشارع.. يحاولون الاستغاثة بلا فائدة.

شعرت غادة بالخوف يستولي على قلبها ويعتصره، إلا أنها اقتربت من المبنى تحاول أن تدخل.. تريد أن تنقذ آدم.. لكن كان ذلك مستحيلًا على أية حال من الأحوال.. بوابة المبنى كانت أشبه بفوهة بركان ثائر.. البوابه منصهرة تمامًا ومقفولة على بعضها والحديد يذوب. رددت غادة دون أن تشعر وهي تحدق في ألسنة اللهب في يأس:

- يا إلهي! هل هذا حقيقي؟!

بعد قليل، ظهرت عربات الإطفاء جاءت من الشوارع الجانبية والشارع الرئيسي.. وبدأت تحاول إخماد الحريق، لكن خراطيم المياه لم يكن لها أدنى تأثير رغم قوتها وشدة اندفاع الماء.. واستمر رجال الإطفاء في محاولتهم المستميتة.. كان يبدو جليًا أن كل من في المبنى سوف يموتون بلا رحمة أو شفقة. ووسط كل تلك الاحداث، وعلى الرغم من حالة الهلع التي أصابتها استطاعت غادة أن ترى آدم يقف في إحدى النوافذ المرتفعة يراقب كل ما يحدث في فضول وترقب دون خوف. كان يرتدي عباءة سوداء أو تميل إلى الأسود وألسنة اللهب تحيط به دون أن تلمسه أو تصيبه بسوء.

اعتقدت في البداية أن عينها تخدعها لكن تأكدت أن ما تراه حقيقي حين شاهدت أحداهم يشير إلى آدم ويقول بصوت باهت

مذعور:

- هناك يقف ملاك الموت!

انطلق بعض الواقفين يعدون مبتعدين في رعب وهم يطلقون صرخات رهيبة وكأن وحوش الدنيا كلها تطاردهم..

حرك آدم يديه حركة معينة وبدأ يردد ترنيمة بلغة ليست عربية حتمًا.. كانت لغة عجيبة ومخيفة.. وكلما رددها كانت النيران تتأجج وتزداد.. ثم تجسد كائن بشع وسط النيران وبدا كجزء من الجحيم.. مخلوق له قرون ضخمه وملامح سوداء بشعة ويدين أشبه بقطعتين من الحجر الملتهب..

وفي مشهد رهيب طار المخلوق نحو السماء.. صرخت غادة لكنها لم تسمع صوتها وأحست بشعور غريب جدًا.. سكون وصمت.. لم تعد تسمع أي شيء كأنها فقدت حاسة السمع. صمت تام هائل كأنها في أكثر مكان في العالم صمتًا.. لا يوجد صوت أو صراخ أو ضجيج.. تشاهد الأشخاص يحركون أفواهم لكن بدون صوت.

نظرت حولها فوجدت الجميع مصاب بنفس تلك الحالة.. الكل يصيح بلا صوت.. البعض يضرب رأسه وأذنيه.. حالة الهلع والذعر امتدت وانتشرت بين الجميع.. لا أحد يفهم ما الذي يحدث.. ما الذي جعل كل شيء صامتًا هكذا بلا صوت.. مستحيل ما يحدث. فجأة طرقت ذهنها جملة مبهمة.. جملة كأنها تنبعث من ماضي سحيق وبدأت تتكرر مرارًا في عقلها.. ثم صدرت صرخة شقت كل الصمت وعاد السمع مرة أخرى للجميع.. حدث ذلك في نفس اللحظة التي

توقف فيها آدم عن التمتمة.. لكنه استمر في تحريك يده.. ومع حركة يده تساقط الناس على الأرض وبدأوا يصرخون صرخات غريبة وكأنهم يشعرون بألم شديد. لم يعد أحد يستطيع مغادرة منطقة الحريق.. ليس الموجدين فقط في المبنى هم المعرضون للموت، لكن أيضًا كل من كان واقفًا ويشاهد.

بمرور الوقت بدأت أصوات الصرخات والعذاب ترتفع أكثر وأكثر وبدأت غادة تشعر أن الأرض تهتز تحت قدميها، وبدون مقدمات فوجئت بجثة رجل تسقط أمامها فانتفض جسدها بكل رعب الدنيا. وجه الرجل كان مشوهًا في شده وتغمره الدماء على نحو مخيف لكنه ما زال ينتفض وكأن هناك بقايا من الروح لم تغادر جسده بعد. ثم سقطت جثة ثانية.. وثالثة.. ورابعة...

بدأ كل الموجدين داخل مبنى المنظمة بإلقاء أنفسهم مثل المجانين من فوق سطح المبنى ومن النوافذ في آن واحد. تساقطت العديد من الجثث على الأرض، وتحطمت وتمزقت الأوصال والأشلاء، وسط الصرخات المذعورة والمرعوبة. بعض الأشخاص الذين ألقوا بأنفسهم فسقطوا فوق رجال الإطفاء وقتلوهم. انتشرت جثث الأموات وحدثت حالة هرج ومرج عشوائية والناس يتساقطون من السماء مثل القنابل.. يتساقطون جميعًا في وقت واحد وفي لحظة واحدة. صوت ارتطام الأجساد بالأرض وتحطمها كان بشعًا لا يحتمل.. لا أحد يستطيع أن يمنع شيئًا أو ينقذهم.. الكل ما بين قتيل وممزق وفاقد العقل.. المشهد يبدو من بعيد وكأن الجحيم قد فتح أبوابه كلها.. جثث كثيرة ملقاة في كل مكان هنا وهناك.. برك من الدم والأشلاء

والشظايا البشرية.. رجال ونساء يصرخون بلا هدف.

استمر الحال لمدة نصف ساعة بدت بالنسبة لغادة دهرًا كاملًا وحين انتهى كل شيء وجدت أن لا أحد على قيد الحياة.. مات الجميع بلا استثناء. تحركت غادة وسط الجثث وهي لا تدري ماذا تفعل.. مجزرة بشرية حدثت.. كانت هي الوحيدة التي ظلت على قيد الحياة.

لمحت آدم يخرج من المبنى ويسير بهدوء شديد فوق الدماء.. نادت عليه بصوت مرتجف:

- آدم!

استمر في مسيرته وكأنه لم يسمعها.. عادت تنادي بهستيريا:

- آدم.. توقف!

وفعلًا توقف في مكانه لكن دون أن يلتفت لها.. لم تجد في نفسها الشجاعة لتقترب منه أكثر.. أدار رأسه نحوها ببطء وقال بغضب:

- لا تناديني بهذا الاسم!

- أنا...

لكنها بترت عبارتها وتجمدت من الذعر حين نظرت إلى وجهه الذي تبدل بسرعة، كانت بشرته رمادية تمامًا ووجهه مغطى بالدماء، وما أثار رعبها أكثر هي تلك النظرة المخيفة المطلة من عينيه مع تلك الابتسامة المرعبة على شفتيه فصرخت:

- يا إلهي!

في تلك اللحظى ظهرت سحابة سوداء كثيفة غطت الشمس ثم سطع البرق في السماء وارتفع جسد آدم في الهواء وبدت ملامحه شديدة القسوة وهو يقول:

- أنا الإله..

ثم ارتفع جسده ببطء في الهواء صارخًا:

- أنا المسيخ الدجال.

الفصل العشرون

فلاش باك

قبل الميلاد..

فوق قمة برج بابل الشاهقة وعلى ارتفاع مئات الأذرع، وقف آدم يخطب في التابعين بصوت جهوري:

- اسمعوا يا سكان مدينة بابل الصالحين.. ما زال يوجد بيننا من ينكر الرب ويدعو إلى عبادة (الله).. علينا إنهاء هذا.. علينا أن نقتل كل الغوغاء.

في الأسفل كان يوجد حشد كبير من الناس وآلاف متجمهرون يقفون جنبًا إلى جنب تحت أسوار البرج.. صرخوا جميعًا:

- أجل.. سنفعل ذلك .

رفع آدم كلتا يديه عاليًا:

- أحبكم الرب.

ثم تقهقر إلى الوراء ببطء وعاد إلى داخل البرج بينما ارتفعت أصوات التابعين تهدر باسمه. سار داخل ممر ضيق حتى وصل إلى قاعة دافئة بلا نوافذ يطغى عليها اللون الأسود، في كل من أركانها مشعل كبير يضيء المكان بوهج ساطع ينعكس على زجاج ساعة رملية عملاقة منتصبة فوق حامل معدني من البرونز. وفي منتصف الغرفة كان (هازارد) يعكف ساجدًا عابدًا تحت تمثال يجسد

(الشيطان). التزم آدم الخشوع والصمت حتى انتهى هازارد من عبادته.. قال هازارد دون أن يلتفت له:

- أحسنت آدم.. أنت تستغل السحر وقواك الخارقة كما يجب أن تكون.

ثم نهض واقفًا وأضاف:

- ومع ذلك أنت لم تبدأ مهمتك الحقيقة التي نذرتك من أجلها.

- أنا في طاعتك..

التفت له هازارد:

- آدم أخبرني.. هل يكون الثعبان مخلوقًا شريرًا لأنه ينفث السم.. الأسد لأنه يقتل؟

- يقولون هذا.

- لكن الإله هو من خلقهم. ألا تتفق معي! وأيضًا المرض.. والموت.. كل شيء هو مخلوق.. كيف يمكن أن نضعهم في جانب الشر إذا كانت تلك هي مهمتهم التي خلقوا من أجلها.. هل يعاقبهم الإله على ذلك؟

- أنا أعتقد...

قاطعه هازارد في حدة:

- لا تجِب.. فقط تذكر كلامي جيدًا.. في المستقبل سوف تحتاج إلى هذا.

ثم اتجه وجلس على مقعد ذهبي وقال:

- المهم اليوم أن تذهب وتستعد لقتال الغوغائين.

وصمت لحظة قبل أن يستطرد:

- لأنك غدًا سوف تموت.

اتسعت عينا آدم:

- أنا لأموت..؟!

- عائنة تنوي خيانتك.. ستقتلك بالسم انتقامًا لموت حزقيال.

زمجر آدم:

- سوف أقتل تلك الخبيثة قبل أن تفعل..

قال هازارد في صرامة:

- بل سوف تشرب السم وتموت.

ونهض من مقعده وتحرك بهدوء في أرجاء القاعة حتى توقف أمام الساعة الرملية وأعاد ضبطها قائلًا:

- أنا أتفهم حيرتك جيدًا.. لكن كما أخبرتك حين التقينا أول مرة نحن ندخرك لهدف آخر.. هدف عظيم يليق بك.

ووضع يده على كتف آدم وبدت النظرة في عينيه الرماديتين أكثر حدة من العادة وهو يتابع كلامه:

- سوف أشرح لك كل شيء.

وكان قوله فصل الختام.. انطفأت الأنوار ثم تصافح الاثنان في حرارة ومزقت أصوات ضحكتهما حاجزي الزمان والمكان.

الفصل الأخير

السر

الوقت الحالي..

شهق هاشم في جزع كمن يسترد روحه في نفس اللحظة التي جذب فيها الشيخ (الراوي) يده من فوق كتفه قائلًا بصوت واضح وحاد كالجرس:

- هذا هو سري الآخر سيد (هاشم). أنا أستطيع أن أجعلك تشاهد المستقبل.

التفت هاشم إلى الشيخ الراوي وهو يشعر برعشة تسري في جسده، حاول أن يستوعب الرؤيا الفظيعة والأحداث الكثيرة التي شاهدها لتوه، ثم غمغم في ارتباك شديد:

- أنا.. أنا...

قاطعه الشيخ (الراوي):

- أنت رأيت ما قد يحدث إذا قررت أن تنبش تلك المقبرة.

- نعم.. رأيت.

نظر له الراوي بفضول:

- وماذا تنوي أن تفعل؟!

غمغم هاشم:

- أتعلم كل هذا غريب وأنا لست..

عاد الراوي يقاطعه:

- سيد (هاشم)، أنا أدرك أنك أنفقت الكثير وبذلت مجهودًا وسنوات من البحث كي تصل إلى هنا بالإضافة إلى رغبتك في استعادة ابنتك، لكن أطلب منك أن تعيد التفكير.. أرجوك فكر مرة أخرى.

حدق هاشم من النافذة إلى المقبرة قليلًا قبل يقول:

- في الواقع.. لا أحتاج إلى مزيد من التفكير.. ما يوجد داخل تلك المقبرة هو آخر أسرار الأرض.

ثم أغلق النافذة وهو يضيف:

- ولا بد أن يظل مدفونًا إلى الأبد.

تمت

محمود الجعيدي

2023